بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النحل

مقدمة :

وهي مكية في قول الجمهور .

أسماؤها :

سميت هذه السورة عند السلف سورة النحل ، وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة.

ووجه تسميتها بذلك أن لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى. (وأوحى ربك إلى النحل ...) .

وعن قتادة أنها تسمى سورة النِعَم – أي بكسر النون وفتح العين –.

ذكر ابن عطية في وجه التسمية : أنه بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده .

كما ذكر ذلك كثير من المفسرين في كتبهم كالزمخشري ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، والقرطبي ، والخازن ، والشوكاني .

أغراضها :

معظم ما اشتملت عليه السورة إكثار متنوع الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية ، والأدلة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته.

وأدلة إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

وإنزال القرآن عليه – عليه الصلاة والسلام –.

وإن شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم عليه السلام .

وإثبات البعث والجزاء ؛ فابتدئت بالإنذار بأنه قد اقترب حلول ما أنذر به المشركون من عذاب الله الذي يستهزئون به ، وتلا ذلك قرع المشركين وزجرهم على تصلبهم في شركهم وتكذيبهم.

وخصت النحل وثمراتها بالذكر لوفرة منافعها والاعتبار بإلهامها إلى تدبير بيوتها وإفراز شهدها.

والتنويه بالقرآن وتنزيهه عن اقتراب الشيطان ، وإبطال افترائهم على القرآن.

والاستدلال على إمكان البعث وأنه تكوين كتكوين الموجودات.

(أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

(أَتَى أَمْرُ اللهِ) يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة .

فالمراد بأمر الله ما اقتضته سنة الله من إثابة المؤمنين وتعذيب الكافرين ودحرهم .

قال ابن جرير : هو تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله ، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك ، وذلك أنه عقب ذلك بقوله سبحانه وتعالى (عما يشركون) فدل بذلك على تقريعه المشركين به ، ووعيده لهم .

قال الشنقيطي : والظاهر المتبادر من الآية الكريمة أنها تهديد للكفار باقتراب العذاب يوم القيامة مع نهيهم عن استعجاله .

قال ابن عطية : قوله تعالى (أمر الله) قال فيه جمهور المفسرين : إنه يريد القيامة وفيها وعيد للكفار ، وقيل : المراد نصر محمد عليه السلام ، وقيل : المراد تعذيب كفار مكة بقتل محمد ﷺ لهم وظهوره عليهم ، ذكر نحو هذا النقاش عن ابن عباس ، وقيل : المراد فرائض الله وأحكامه في عباده وشرعه لهم ، هذا هو قول الضحاك ، ويضعفه قوله { فلا تستعجلوه } إنا لا نعرف استعجالاً إلا ثلاثة اثنان منها للكفار وهي في القيامة وفي العذاب ، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام .

فالمراد بأمر الله : يوم القيامة .

وهو قول الجمهور .

ورجحه ابن عطية ، والخازن ، وابن كثير ، والسيوطي ، والشنقيطي .

قال ابن عاشور : وفي التعبير عنه بأمر الله إبهام يفيد تهويله وعظمته لإضافته لمن لا يعظم عليه شيء.

وقال بعض العلماء : جاء التعبير بـ (أمر الله) وليس " عذاب الله "؛ لأن موضوع الآية وما بعدها هو إثبات التوحيد، بأن الله هو سبحانه الخالق لا إله غيره، فناسب ذلك بيان أن العذاب لا يكون إلا بأمر الله؛ لأن الانفراد بالأمر يدل على الوحدانية، فذكر أمر الله فيه تهديد للكفار، وفيه أيضا إثبات أن الله هو المتصرف في هذا الكون؛ لأنه لا إله غيره، وهذا أبلغ من التعبير بـ "عذاب الله .

جاء التعبير بالماضي (أتى) في قوله تعالى (أتى أمر الله) وذلك لأن وضع الماضي موضع المستقبل دلالة على قرب الوقوع وعلى تأكده، كقوله تعالى: (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) وقوله (ونفخ في الصور) فالفعل " نادى " و" ونفخ " فعلان ماضيان يتحدثان عن أمور مستقبلية؛ للدلالة على تحقق الفعل المستقبلي كأنه وقع .

قوله (أتى ...) عبر بصيغة الماضي تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع.

قال الرازي : لما كان الوقوع لا محالة عبر عنه بالماضي، كقوله (ونفخ في الصور) وقوله (ونادى أصحاب الجنة اصحاب النار ...) وقوله (وأشرقت الأرض بنور ربها ...) وغير ذلك كثير .

وقال البقاعي : وعبر عن الآتي بالماضي إشارة إلى تحققه تحقق ما وقع ومضى ، وإلى أن كل آتٍ ولا بد قريب .

وقال القرطبي : وقد تقدّم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آتٍ لا محالة ،كقوله (ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار) ، و"أمر اللَّهِ" عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله.

قال الشنقيطي : والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقق وقوعه كثير في القرآن :

كقوله (وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات) وقوله (ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار) ، وقوله (وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ وَسِيقَ الذين كفروا) فكل هذه الأفعال الماضية بمعنى الاستقبال ، نزل تحقق وقوعها منزلة الوقوع.

– واقتراب القيامة المشار إليه هنا بينه الله في مواضع أخر :

كقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) .

وقوله (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) .

وقوله تعالى (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً) .

(**فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ**) أي فلا تستعجلوا العذاب الذي وعدكم به محمد ﷺ .

فمرجع الضمير في قوله (فلا تستعجلوه) إلى أمر الله .

وقيل : يعود على الله ، أي : فلا تستعجلوا الله بالعذاب .

ويصح حمل الآية على القولين .

قال ابن كثير : وكلاهما متلازم

– والكفار دائماً يستعجلون العذاب :

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) .

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) .

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي تنزَّه الله عما يصفه به الظالمون، وتقدس عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان .

الفوائد :

١. قرب قيام الساعة ومجيء وعد الله .

٢. وجوب الاستعداد للساعة ، ولذلك قال ﷺ للرجل الذي سأل عن الساعة : ما أعددت لها .

٣. تهديد الكفار والمعرضين بيوم القيامة .

٤. أن الكفار يستعجلون وقوع العذاب .

٥. وجوب تنزيه الله عن كل عيب ونقص ، كادعاء الولد أو الصاحبة .

(**يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ**) .

==========

(**يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ**) أي يُنزّل الملائكة بالوحي والنبوة بإرادته وأمره .

– فمعنى (الروح) هنا أي الوحي ، لأن الوحي به حياة الأرواح ، كما أن الغذاء به حياة الأجسام .

– ويدل على أن المراد بالروح هنا الوحي :

قوله تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) .

وقوله تعالى (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) .

ويدل لذلك أيضاً : إتيانه بعد قوله (ينزل الملائكة بالروح) بقوله (أَنْ أَنْذِرُوا) لأن الإنذار إنما يكون بالوحي ، بدليل قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ) .

قال ابن عاشور : والمراد بالملائكة الواحد منهم وهو جبرئيل عليه السلام ، والروح : الوحي ، أطلق عليه اسم الروح على وجه الاستعارة لأن الوحي به هدي العقول إلى الحقّ ، فشبّه الوحي بالروح كما يشبّه العلم الحقّ بالحياة ، وكما يشبّه الجهل بالموت قال تعالى (أومن كان ميتاً فأحييناه) .

(**مِنْ أَمْرِهِ**) يعني أن ذلك التنزيل والنزول لا يكون إلا بأمر الله تعالى .

كقوله تعالى (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ) .

وقوله (لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) .

وقوله (وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) .

وقوله (يخافون رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

وقوله (لاَّ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

فكل هذه الآيات دالة على أنهم لا يقدمون على عمل من الأعمال إلا بأمر الله تعالى وإذنه

(**عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**) أي ينزل الوحي على من اختاره وعلمه أهلا لذلك ، وهم الأنبياء والمرسلين .

كما قال تعالى (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) .

وقال تعالى (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) .

وقال تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) .

(**أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ**) أي لينذروا ، والمعنى : أي بأن أنذروا أهل الكفر أنه لا معبود بحق إلا الله فخافوا عذابي وانتقامي لمن عبد غيري .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

وقال تعالى (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ) .

وقال تعالى قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ) .

واقتصر هنا على الإنذار الذي هو بمعنى التخويف لأن الحديث مع المشركين الذين استعجلوا العذاب واتخذوا مع الله آلهة أخرى .

الفوائد :

١. إثبات علو الله لقوله (ينزل ..) والنزول يكون من علو إلى اسفل .

٢. إثبات الملائكة .

٣. أن الملائكة عباد مكرمون مطيعون لله .

٤. حكمة الله في اختيار الرسل والأنبياء .

٥. الحكمة الكاملة لله تعالى .

٦. أن من حكمة إرسال الرسل الإنذار ، ولإرسال الرسل حكم عديدة :

أولاً : التبشير للمؤمن والإنذار لكافر .

قال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

ثانياً : رحمة للناس .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

ثالثاً : البلاغ المبين .

قال تعالى (وإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) .

وقال تعالى (مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .

وقال تعالى (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) .

رابعاً : الدعوة إلى الله .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

خامساً : إقامة الحجة .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) .

وعندما يصيحون بالنار بعد أن يحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة جهنم :

كما قال تعالى (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) .

٧. إثبات وحدانية الله تعالى .

٨. الأمر بتقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣)

[النحل : ٣] .

==========

(**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**) أي: وليس عبثاً ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) .

– وقد بين تعالى في آيات الكثيرة أن الله خلق السموات والأرض بالحق :

قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) .

قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ) .

وقال تعالى (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ) .

وخص الله سبحانه وتعالى السموات والأرض بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات أمام أعين الناظرين، ولأنهما مشتملتان على أصناف شتى من الخلق، ولأن العباد يعيشون فوق الأرض وتحت السماء فلا غنى لهم عنهما .

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جلا وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض ، تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيء .

فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) .

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً ، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

(**تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**) نزه نفسه سبحانه عن شرك من عبد معه غيره ، فإن من يخلق هذه المخلوقات العظيمة يتنزه ويتعاظم أن يعبد معه ما لا يخلق شيئاً ، ولا يملك لنفسه شيئاً ، أو أن يكون له ولداً أو شريكا .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) .

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ....) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) .

فالآية تدل على أن من يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود ، لا يصح أن يعبد معه من لا يقدر على شي. ولهذا أتبع قوله : { خَلَقَ السماوات والأرض بالحق } بقوله : { تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة :

كقوله (يَا أَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ) الآية. فدل على أن المعبود هو الخالق دون غيره .

وقوله (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) .

وقوله (أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار) .

وقوله (تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً) .

وقوله جل وعلا (هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ بَلِ الظالمون فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) .

وقوله (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات) .

وقوله (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ائتوني بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هذآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) .

وقوله جل وعلا (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقوله تعالى (يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ) .

وقوله (أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون أَمْ خَلَقُواْ السماوات والأرض) .

وقوله (والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

فهذه الآيات تبين أن الذي يستحق أن يعبد هو من يخلق الخلق ، ويبرزهم من العدم إلى الوجود. أما غيره فهو مخلوق مربوب ، محتاج إل من يخلقه ، ويدبر شؤونه. .

الفوائد :

١. أن الخالق هو الله .

٢. أن أعظم مخلوقات الله السماء والأرض .

٣. أن الله خلق السموات الأرض لحكمة .

٤. التنديد بمن يجعلون مع الله آلهة أخرى .

٥. أن المستحق للعبادة هو من يخلق ويوجد ويحيي ويميت .

٦. أن العاجز عن الخلق والإيجاد لا يستحق العبادة .

٧. وجوب تنزيه الله عن العبث .

٨. أن أفعال الله كلها لحكمة .

٩. أن السموات سبع ، وهذا منصوص عليه في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ).

وأما الأرض فهي سبع أيضاً لظاهر القرآن وصريح السنة ، قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وأما السنة فقوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه.

المراد بالسماء هنا السماوات ذات الأجرام، وذلك أن السماء يُطلق على معنيين:

المعنى الأول: العلو .

كقوله تعالى (أنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا العلو، لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف، بل ينزل من العلو.

المعنى الثاني: المراد بالسماء السقف .

كما في هذه الآية .

وكما في قوله تعالى (والسَّمَاءَ بِنَاءً).

(خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) .

[النحل : ٤] .

==========

(خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) أي خلق هذا الجنس البشري من نطفةٍ مهينة ضعيفة هي المنيُّ .

قال الشنقيطي : ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه خلق الإنسان من نطفة ، وهي مني الرجل ومني المرأة. بدليل قوله تعالى (إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) أي أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة.

وأمر الإنسان بأن ينظر مم خلق في قوله (فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ) تنبيه له على حقارة ما خلق منه. ليعرف قدره ، ويترك التكبر والعتو ، ويدل لذلك قوله (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ) .

وبين جل وعلا حقارته بقوله (أَيَطْمَعُ كُلُّ امرئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ) .

(فَإِذَا هُوَ) أي : فإذا هو بعد نعمة الله تعالى عليه بخلقه في أحسن تقويم .

(خَصِيمٌ مُّبِينٌ) أي فإذا به بعد تكامله بشراً مخاصمٌ لخالقه، واضح الخصومة، يكابر ويعاند، وقد خُلق ليكون عبداً لا ضداً .

قال ابن الجوزي: لقد خُلق من نطفة وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث، أفلا يستدل بأوله على آخره، وبأن من قدر على إيجاده أولاً قادرٌ على إعادته ثانياً .

– معنى خصيم : أي يخاصم في البعث وينكره .

– وقد بين الله تعالى أن هذا المخلوق من نطفة يخاصم في البعث كما قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

وقال تعالى (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً . أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً) .

الفوائد :

١. تحقير الإنسان الذي يخاصم ويجادل ويعاند الرسل .
٢. من أسباب الخضوع للجبار تبارك وتعالى أن ينظر الإنسان في نفسه ومما خلق حتى لا يتكبر .
٣. طغيان الكفار ، حيث يتكبرون وهم خلقوا من أحقر الأشياء .
٤. بيان أن الإنسان خلق من ضعف؛ لقوله: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ} وهو كذلك
٥. أن هذا الإنسان الذي خلق من هذه المادة الضعيفة يترقى حتى يكون ذا خصومة مبينة .
٦. النداء على الإنسان بالظلم، وجه ذلك: كيف يكون هذا الذي خلق من هذه النطفة يبلغ به الحد إلى أن يكون خصيمًا لله عز وجل بيّن الخصومة؟! لأن الإنسان يجب عليه إذا نظر إلى أصله أن يعرف قدر نفسه، لا أن يكون مخاصمًا لربه عز وجل.
٧. أن الخصومة بالباطل مذمومة، ووجه ذلك أن الآية سيقت مساق الذم لا مساق المدح.

أما الخصومة لإثبات الحق وإبطال الباطل، فإنها ممدوحة لقول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.

ولولا الجدال مع أهل الباطل ما تبين الحق، ولا اندحض الباطل، فلابد للإنسان من الجدال في إثبات الحق، وإبطال الباطل، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم .

(وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)) .

[النحل : ٥-٩] .

==========

(وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا) يمتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون يفترشون ، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها ولذلك قال تعالى :

(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) أي لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار .

(وَمَنَافِعُ) أي لكم فيها منافع عديدة من النسل والدر وركوب الظهر .

(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) أي : من لحومها تأكلون وهو من أعظم المنافع لكم .

–قال القرطبي : أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع.

–وقال أبو حيان : وأفرد منفعة الأكل بالذكر ، كما أفرد منفعة الدفء ، لأنهما من أعظم المنافع.

–قال الخازن : فإن قلت : قوله تعالى (ومنها تأكلون) يفيد الحصر لأن تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها. قلت : الأكل من هذه الأنعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط والإوز وصيد البر والبحر، فغير معتد به في الأغلب : وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الأغلب في الأكل من هذه الأنعام.

فإن قلت : منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الأكل وقدم منفعة اللباس؟ قلت : منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الأكل فلهذا قدم على الأكل.

واعلم أن هذه المنافع الثلاثة هي المنافع الضرورية الحاصلة من الأنعام.

(**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ**) أي أن اقتناء هذه الأنعام وملكيتها فيه لمالكها عند الناس جمال : أي زينة وعظمة ورفعة وسعادة في الدنيا لمقتنيها. وكذلك قال في الخيل والبغال والحمير (لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) فعبر في الأنعام بالجمال ، وفي غيرها بالزينة .

(**حِينَ تُرِيحُونَ**) أي وقت الرواح وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى .

(**وَحِينَ تَسْرَحُونَ**) أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى .

الإراحة رد الإبل بالعشي إلى مراحها حيث تأوي إليه ليلاً .

(تريحون) ترجعون آخر النهار، أي ترجعون بأنعامكم إلى مأواها، والرواح ضد الصباح.

(تسرحون) تخرجون أول النهار، أي بأنعامكم إلى مرعاها .

–قال أبو السعود : (حِينَ تُرِيحُونَ) تردّونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي (وَحِينَ تَسْرَحُونَ) تخرِجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها .

وخص –سبحانه– هذين الوقتين بالذكر، لأنهما الوقتان اللذان تتراءى الأنعام فيهما، وتتجاوب أصواتها ذهابا وجيئة، ويعظم أصحابها في أعين الناظرين إليها.

– قدم الرواح على الغدو ، لأن وقت الرواح أملأ ضروعاً وبطوناً منها وقت سراحها للمرعى .

قال بعض العلماء : ... وذلك لأن الأنعام عند رجوعها تكون قد أكلت وشبعت وسمنت وامتلأت ضروعها باللبن، فيفرح صاحبها بهذا الخير، وهو أشبه ما يكون بالمزارع وقت القطاف، وأما عند خروجها صباحاً فيشعر صاحبها بالسرور لرؤيتها ولكن ليس كما لو كانت على حال رجوعها آخر النهار .

–قال الرازي : فإن قيل : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟

قلنا : لأن الجمال في الإراحة أكثر.

لأنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع ، ثم اجتمعت في الحظائر حاضرة لأهلها بخلاف التسريح ، فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار ، فظهر أن الجمال في الإراحة أكثر منه في التسريح.

–وقال الماوردي : وقد قدم الرواح على السراح وإن كان بعده لتكامل درها ولأن النفس به أسَرُّ .

–وقال البقاعي : لما كان القدوم أجل نعمة وأبهج من النزوح ، قدمه فقال (حين يريحون) بالعشي من المراعي وهي عظيمة الضروع طويلة الأسنمة (وحين تسرحون) بالغداة من المراح إلى المراعي ، فيكون لها في هاتين الحالتين من الحركات منها ومن رعاتها ومن الحلب والتردد لأجله وتجاوب الثغاء والرغاء أمر عظيم وأنس لأهلها كبير.

(**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ**) وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ، والمراد الإبل .

الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره ، وهو ما يثقل الإنسانَ حمله.

(**إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ**) أي : إلى بلد بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهدٍ ومشقة .

–قال الخازن : يعني غير بلدكم قال ابن عباس : يريد من مكة إلى اليمن ، وإلى الشام وإنما قال ابن عباس : هذا القول لأنه خطاب لأهل مكة واكثر تجارتهم وأسفارهم إلى الشام واليمن وحمله على العموم أولى لأنه خطاب عام فدخول الكافة فيه أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين .

قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالْأَنْعَامِ عُمُومًا ، وَخَصَّ الْإِبِلَ هَهُنَا بِالذِّكْرِ فِي حَمْلِ الْأَثْقَالِ ، تَنْبِيهًا عَلَى مَا تَتَمَيَّزُ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَنْعَامِ ؛ فَإِنَّ الْغَنَمَ لِلسَّرْحِ وَالذَّبْحِ ، وَالْبَقَرَ لِلْحَرْثِ ، وَالْإِبِلَ لِلْحَمْلِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (بَيْنَا رَاعٍ فِي غَنَمٍ عَدَا عَلَيْهَا الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً ، فَطَلَبَهُ الرَّاعِي، فَالْتَفَتَ إلَيْهِ الذِّئْبُ، وَقَالَ : مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ ، يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي وَبَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا ، فَالْتَفَتَتْ إلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ ، فَقَالَتْ : إنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا ، وَإِنَّمَا خُلِقْت لِلْحَرْثِ. فَقَالَ النَّاسُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، بَقَرَةٌ تَتَكَلَّمُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ : آمَنْت بِذَلِكَ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَمَا هُمَا ثَمَّ).

(**إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**) أي ربكم أيها الناس الذي سخر لكم هذه الأنعام لعظيم الرأفة والرحمة بكم .

-والرؤوف: اسم من أسماء الله تعالى.

والرأفة أعلى معاني الرحمة.

وقال الخطابي: الرؤوف هو الرحيم العاطف برأفته على عباده.

وقال بعضهم: الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها.

قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه.

فمن رأفته سبحانه وتعالى بنا، أنه خوفنا من عقوبته وعذابه، ونهانا عن معصيته، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ليستعد للقائه، ويتجنب سخطه وغضبه (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ).

ومن رأفته أنه أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

ومن رأفته أنه يقبل توبة التائبين، ولا يُرد عن بابه العاصين المنيبين، مهما كثرت سيئاتهم، وتعاظمت خطيئاتهم (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

ومن رأفته: تسخيره لما في السماوات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته، وخلقه الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة، هو ومتاعه وزاده (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

(**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**) هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ، يمتن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير ، خلقها للزينة والجمال والركوب .

وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في المشية .

والبغل : جمع بغل وهو المتولد بين الخيل والحمير .

–قال في (التفسير الوسيط) ومن مظاهر فضله عليكم، ورحمته بكم، أنه خلق لمنفعتكم- أيضا- الخيل والبغال والحمير، لتركبوها في غزوكم وتنقلاتكم، ولتكون زينة لكم في أفراحكم ومسراتكم.

وأتى -سبحانه- باللام في (لتركبوها) دون ما بعدها، للإشارة إلى أن الركوب هو المقصود الأصلي بالنسبة لهذه الدواب، أما التزين بها فهو أمر تابع للركوب ومتفرع منه.

بينت الآية أشهر منافع الخيل والبغال والحمير عند العرب، وهي الركوب والزينة، ولا يعني هذا أن الركوب والزينة هي كل المنافع؛ لأنه لا ينكر أحد أن الحمل من منافع هذه الحيوانات، وكذلك الحرث، ولكن ذكرت الآية أشهر ما كان يستفيده العرب من هذه الحيوانات.

واكتفى بذكر الركوب ولم يذكر الأكل ، لأن البغال والحمير محرم أكلها ، ولأن الخيل لا تتخذ للأكل غالباً .

ولم يذكر الحمل عليها لأنها غالباً تستخدم للركوب لا للحمل وبخاصة الخيل والبغال فهي تركب للغزو والصيد والأسفار .

–قال الشوكاني (لِتَرْكَبُوهَا) وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها ، لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم كالتحميل عليها

- استدل أبو حنيفة بالآية على حرمة لحوم الخيل ، لأنها لو كانت حلالا لذكرت في باب الامتنان، ولكن سبق ذكر أن الآية لم تبين كل أنواع الفوائد والمنافع بل بينت المشهور منها.

فلحم الخيل حلال .

وهذا مذهب جماهير العلماء.

قال النووي: فَمَذْهَب الشَّافِعِيّ، وَالْجُمْهُور مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف أَنَّهُ مُبَاح لَا كَرَاهَة فِيهِ، وَبِهِ قَالَ عَبْد اللَّه بْن الزُّبَيْر وَفَضَالَة بْن عُبَيْد وَأَنَس بْن مَالِك وَأَسْمَاء بِنْت أَبِي بَكْر وَسُوَيْد بْن غَفَلَة وَعَلْقَمَة وَالْأَسْوَد وَعَطَاء وَشُرَيْح وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالْحَسَن الْبَصْرِيّ وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيُّ وَحَمَّاد بْن سُلَيْمَان وَأَحْمَد وَإِسْحَاق وَأَبُو ثَوْر وَأَبُو يُوسُف وَمُحَمَّد وَدَاوُد وَجَمَاهِير الْمُحَدِّثِينَ وَغَيْرهم. (شرح مسلم)

وقال في المجموع: قد ذكرنا أن مذهبنا أنه حلال لا كراهة فيه وبه قال أكثر العلماء.

أ-عَنْ جَابِرٍ قَالَ (نَهَى رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ اَلْحُمُرِ اَلْأَهْلِيَّةِ، وَأَذِنَ فِي لُحُومِ اَلْخَيْلِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ب-عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنها قَالَتْ (نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ) متفق عليه. وَفِي رِوَايَةٍ (وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ).

ج- وعن جابر قال: (سافرنا مع رسول الله ﷺ وكنا نأكل لحم الخيل ونشرب ألبانها) رواه الدارقطني والبيهقي. قال النووي: بإسناد صحيح»

(وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) أي ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن .

–قال القرطبي : قوله تعالى (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) قال الجمهور : من الخلق.

وقال الماوردي : قوله تعالى (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) ما لا تعلمون من الخلق ، وهو قول الجمهور.

قال الشنقيطي: وقد حدث الآن من الوسائل التي أنعم الله بها على عباده من وسائل النقل الحديثة كالطائرات والسيارات والقطارات وغيرها .

الفوائد :

١. أن الله خالق كل شيء .
٢. حكمة الله العظيمة في خلق الأنعام .
٣. أن الله لا يخلق شيء إلا لحكمة .
٤. امتنان الله علينا بخلق الأنعام .

٥. عظم هذه المنافع في البهائم .

٦. تنوع هذه المنافع فمنها للركوب ، ومنها للأكل ، ومنها للزينة .

٧. وجوب شكر الله على هذه النعم ، حيث سخر للإنسان هذه البهائم ليأكل ومنها وليركبها ولتحمله .

٨. رحمة الله بعباده .

(وعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)) .

[النحل : ٩] .

==========

(**وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**) اختلف العلماء في معنى ذلك :

فقيل : على الله تبيين طريق الهدى .

وهذا قول الطبري ، والزجاج ، والسمرقندي ، والسمعاني ، والبغوي ، والقرطبي ، والخازن ، وابن جزي ، والشوكاني ، وابن عاشور كما قال تعالى (إن علينا للهدى) .

وقيل : أن طريق الحق التي هي قصد السبيل على الله أي : موصلة إليه ، ليست حائدة ولا جائرة عن الوصول إليه وإلى مرضاته .

وهذا قول مجاهد ، وابن كثير ، والسعدي ، واستظهره الشنقيطي .

قال ابن كثير : أي الصراط المستقيم الذي هو أقرب الطرق وأخصرها ، موصل إلى الله وإلى كرامته .

كما قال تعالى (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) .

وقال تعالى (وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) ، وهذا القول رجحه ابن كثير .

وقيل : أن المعنى : أي على الله جلا وعلا أن يبين لكم طريق الحق والضلال .

والقول الأول أصح ورجحه ابن كثير ، ولهذا قال تعالى :

(**وَمِنْهَا جَآئِرٌ**) أي ومن الطرق جائر لا يصل إلى الله ، بل هو زائغ وحائد عن الوصول إليه .

–قال الشنقيطي : ... فَاعْلَمْ أَنَّ فِي مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَجْهَيْنِ مَعْرُوفَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا لَهُ مِصْدَاقٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا أَظْهَرُ عِنْدِي مِنَ الْآخَرِ .

الْأَوَّلُ مِنْهُمَا : أَنَّ مَعْنَى (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) أَنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ الَّتِي هِيَ قَصْدُ السَّبِيلِ عَلَى اللَّهِ ، أَيْ : مُوَصِّلَةٌ إِلَيْهِ ، لَيْسَتْ حَائِدَةً ، وَلَا جَائِرَةً عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ وَإِلَى مَرْضَاتِهِ ، (وَمِنْهَا جَائِرٌ) أَيْ : وَمِنَ الطَّرِيقِ جَائِرٌ لَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، بَلْ هُوَ زَائِغٌ وَحَائِدٌ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) ، وَقَوْلُهُ : (وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) . وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّفْسِيرَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ : وَمِنْهَا جَائِرٌ وَهَذَا الْوَجْهُ أَظْهَرُ عِنْدِي ، وَاسْتَظْهَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)، أَيْ : عَلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ طَرِيقَ الْحَقِّ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ. وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَقَوْلُهُ : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ، وَقَوْلُهُ : (فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ : (وَمِنْهَا جَائِرٌ)، غَيْرُ وَاضِحٍ لِأَنَّ الْمَعْنَى : وَمِنَ الطَّرِيقِ جَائِرٌ عَنِ الْحَقِّ ، وَهُوَ الَّذِي نَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ سُلُوكِهِ . وَالْجَائِرُ : الْمَائِلُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَالْوَجْهَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَارِيَانِ فِي قَوْلِهِ : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ...)

ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال :

(**وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**) ولكنه هدى بعضاً ، كرماً وفضلاً ، ولم يهد آخرين حكمة منه وعدلاً .

كما قال تعالى في آيات أخر (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

وَقَوْلِهِ (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ...) .

وَقَوْلِهِ (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) .

وَقَوْلِهِ (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) .

وَقَوْلِهِ (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) .

الفوائد :

١. وجوب سلوك الطريق الموصل لله .

٢. التحذير من سلوك الطرق الضالة المنحرفة .

٣. حكمة الله في هدية من يشاء فضلاً ونعمة ، ويضل من يشاء حكمة وعدلاً .

٤. أن الله قادر على هداية كل الناس ، لكن لحكمة قسم الناس إلى مهتدٍ وإلى غير مهتد .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)) .

[النحل : ١٠-١١] .

(**هُوَ**) سبحانه وتعالى وحده .

(الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) أي: أنزل من السماء مطراً عذباً فراتاً أنزله سبحانه بقدرته، فأخرج بذلك المطر أنواع الثمر والفواكه والخضار.

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) .

وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا).

وقال تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ).

- المراد بقوله (السماء) العلو، لأن المطر ينزل من السحاب.

(**لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ**) أي : جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً .

ولهذا امتن عليهم في سورة الواقعة بقوله (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ) . أي : لو شئنا لجعلناه مالحاً شديد الملوحة لا يصلح لشرب ولا لزرع .

(**وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**) أي : وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ، فيه تسيمون، أي ترعون ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي .

(**يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**) أي : يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها .

وخص هذه الأصناف الأربعة لأنها من أفضل ما تنبته الأرض من الأشجار وثمرها من أطيب الثمار طرياً أو يابساً ومنافعها لا تحصى كثرة .

قال أبو حيان : وخص الأربعة بالذكر لأنها أشرف ما ينبت ، وأجمعه للمنافع.

وقال الخازن : لما ذكر الله في الحيوان تفصيلاً وإجمالاً ذكر الثمار تفصيلاً وإجمالاً فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما لأن به قوام بدن الإنسان ، وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن والبركة ، وثلث بذكر النخيل لأن ثمرتها غذاء وفاكهة ، وختم بذكر الأعناب لأنها شبه النخلة في المنفعة من التفكه ، والتغذية ، ثم ذكر سائر الثمرات إجمالاً لينبه بذلك على عظيم قدرته ، وجزيل نعمته على عباده .

قال السعدي: وهذا من أعظم مننه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعا وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء، مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجدب واليأس والقحط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، مما يوجب لهم، أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإنابة إليه، والمحبة له.

-وهذا البرهان ذكره الله تعالى في عدة مواضع:

قال تعالى (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا).

وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ).

وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ).

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) أي : إن في ذلك المذكور، من إنزال الماء من السماء، وإنبات الزروع والثمار بسببه، لآية باهرة، ودلالة عظيمة، على وحدانية الله- تعالى- وقدرته، لقوم يحسنون التفكير، ويجيدون التأمل في خلقه، أما الذين لا يحسنون التفكير والتأمل، فهم كالأنعام بل هم أضل.

قال ابن كثير : أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) .

فختم- سبحانه- الآية بقوله إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ للحض على التفكر والتأمل في عظيم قدرته- سبحانه- حتى يصل المتأمل إلى إخلاص العبادة له- عز وجل.

قال الآلوسي ما ملخصه: وقال سبحانه (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) لأن من تفكر في أن الحبة والنواة، تقع في الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أسفلها، فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض، وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة في الوقوع...

من تفكر في ذلك علم أن من هذه آثاره وأفعاله، لا يمكن أن يشبهه غيره في صفة من صفات الكمال، فضلا عن أن يشاركه في أخص صفاته التي هي الألوهية واستحقاق العبادة.

-وفي هذا فضل التفكر :

والتفكر هو: تكرار تأمل القلب في الشيء مرّات ومرات، حتى يتعرف العبد على خباياه وأسراره قدر طاقته.

قال ابن القيم: الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له.

-وقد أمر الله بالتفكر في آياته في مواضع كثيرة.

قال تعالى (وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون) .

وقال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

وقال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ).

وقال تعالى (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ).

وقال تعالى (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ).

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ).

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

-وقد ذم الله الغفلة عن آيات الله المتنوعة.

قال الله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ).

قال ابن القيم: إذا غذي القلب بالتذكر، وسقيَ بالتفكر، ونُقي من الدعل، رأى العجائب وألهم الحكمة.

وقال رحمه الله: معرفة الله سبحانه نوعان: الأول: معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي. والثاني: معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم.

-ولهذه المعرفة بابان واسعان:

الباب الأول: التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط.

وقال رحمه الله: والتذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على التذكرة، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم.

سئلت أم ذر عن عبادة أبي ذر فقالت: التفكر والاعتبار.

وقال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته فكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو.

وقال الفضيل: الفكرة مرآةُ تريك حسناتِك وسيئاتِك.

وقال ابنُ بَطَّال: إن الإنسان إذا كَمُل إيمانه، وكَثُر تفكُّره، كان الغالِبُ علَيْه الإشفاقَ والخَوْف.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئٍ قط إلا علِم، وما علِم امرؤ قط إلا عمِل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله حسن، والفكرةُ في نِعم الله أفضل العبادة.

وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه قط.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ.

بينما أبو شريح يمشي يوماً إذ جلس، ثم بكى بكاء شديداً، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي.

وقال الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة.

قال ابن القيم معلقاً: وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلبُ أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح، وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه العمل المجرد.

وقال ابن الجوزي: همة المؤمن متعلقةٌ بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحرّكه إلى ذكر الآخرة، ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته، والنجار إلى السقف، والبناء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط.
والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثم، وذلك يشغله عن كل ما تم.
قال سفيان بن عيينة: الفكرةُ نورٌ يدخل القلب.
وقال بعض الحكماء: أحْي قلبك بالمواعظ، ونوّره بالفكر، وموّته بالزهد، وقوّه باليقين، وذلله بالموت، وقرّره بالفناء، وبصّره فجائع الدنيا.
سئل أعرابي عن دليل على وجود الله فقال: سبحان الله! سماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذاتُ أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير!!
قال ابن القيم: أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك

الفوائد :

١. إثبات علو الله .
٢. بيان نعمة الله تعالى على عباده بإنزال المطر .
٣. وجوب شكر الله على هذه النعم .
٤. فضل التفكر في آيات الله .
٥. ذم من لم يتفكر في آيات الله .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)) .
[النحل : ١٢-١٣] .
==========
(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة اشياء عظام، فيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا الله ، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده ، وقد كرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء :
قال تعالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) . وإغشاؤه الليل والنهار هو تسخيرهما .
وقال تعالى (وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) .
وقال تعالى (وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)
(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) بأن جعلهما متعاقبين، يأتي أحدهما في أعقاب الآخر، فتنتفعون بكل منهما بما يصلح أحوالكم.
فالليل تنتفعون به في راحتكم ومنامكم ... والنهار تنتفعون به في معاشكم وطلب رزقكم .
يزيد هذا وينقص هذا ، وينقص هذا ويزيد هذا ويستويان تارة .
كما قال تعالى (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً، وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً) .

قال تعالى (بولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) .

وقال تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) .

فالليل وقتاً للسكن والنهار وقتاً للعمل :

قال تعالى (قلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

وقال تعالى (وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً) أي: يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون.

كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ).

وقال تعالى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ).

وقال تعالى (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى ما قال: (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فالإتيانُ بالليلِ بدلَ النهارِ والإتيانُ بالنهارِ بدلَ الليلِ من أعظمِ آياتِ اللَّهِ – جل وعلا – الدالة على أنه المعبودُ وحدَه، وأنه الربُّ وحدَه، ومع كونِ الليلِ والنهارِ آيتين فَهُمَا أيضًا نعمتانِ عظيمتانِ من أعظمِ نِعَمِ اللَّهِ على خَلْقِهِ، فهما جامعانِ بينَ كونِهما آيتين وكونهما نعمتين .

وَبيَّنَ أنهما آيتانِ بقولِه (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَار) وَبَيَّنَ أنهما نعمتانِ وآيتانِ في مواضعَ كثيرةٍ من أصرحِها سورةُ القصصِ حيث قال فيها: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) ثم بَيَّنَ أنهما نعمتانِ بعدَ بيانِ أنهما آيتانِ قال: (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) يعني النهار.

فجعل الليلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا للسكونِ والهدوءِ وعدمِ الحركةِ ليستريحَ الناسُ من كَدِّ الأعمالِ والتعبِ في النهارِ، ثم يجعلُ النهارَ مُضِيئًا مُنِيرًا مُنَاسِبًا لِبَثِّ الناسِ في حوائجِهم واكتسابِ معايشهم في نورٍ ساطعٍ من غيرِ فتيلةٍ ولاَ زيتٍ ولاَ حاجةٍ إلى مؤنة.

(**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**) أي : ذلل الليل والنهار يتعاقبان ، لمنامكم ومعاشكم ، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم .

والتسخيرُ: التذليلُ. فقد سَخَّرَ الشمسَ لمنافعِ هذا الْخَلْقِ؛ ولأنها آيةٌ عُظْمَى كما قال (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) يُطْلِعُهَا في كُلِّ يومٍ، ويسيرها بحسابٍ معلومٍ طرقها وسيرها بتسخيرِ رَبِّ العالمينَ دائبة. وكذلك سَخَّرَ القمرَ على سَيْرِهِ المعتادِ، وحسابِه المعروفِ، نعرفُ بهما عددَ السنين والشهورِ والحسابَ، وكذلك سَخَّرَ النجومَ ليهتديَ بها خَلْقُهُ، وليزينَ بها السماءَ، ويطردَ بها الشياطينَ. فهذه المخلوقاتُ العظامُ العلويةُ سَخَّرَهَا خالقُ السماواتِ والأرضِ للاعتبارِ بها، ولمنافعِ خَلْقِهِ منها.

(**وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ**) أي : والنجوم تجرى في فلكها بأمره تعالى ، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) أي : إن في ذلك المذكور من تسخير الليل والنهار وغيرهما لمنفعتكم ومصلحتكم- يا بنى آدم- لآيات بينات، ودلائل واضحات، على وجوب العبادة لله تعالى وحده، لقوم يعقلون نعم الله تعالى، ويستدلون بها على وحدانيته- سبحانه- وقدرته.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ. أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ) .

(**وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ**) أي : وسخر لكم- أيضا- ما أوجده في الأرض من أجل منفعتكم من عجائب الأمور، ومختلف الأشياء، من حيوان ونبات، ومعادن مختلفة الألوان والأجناس والخواص.

ولا شك أن في اختلاف الألوان والمناظر والهيئات وغير ذلك، فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله- تعالى- وعلى أنه الخالق لكل شيء.

قال تعالى (وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ) .

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة بقوله إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أي: إن في ذلك الذي بيناه لكم، لآية واضحة على قدرة الله تعالى لقوم يعتبرون، ويتذكرون آلاء الله ونعمه، فيشكرونه عليها، ويخلصون له العبادة.

- وما ذكره الله هنا ذكره في مواضع كثيرة .

قال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ) .

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) .

- وذكر تعالى هنا أن اختلاف ألوان ما خلق في الأرض من الناس والدواب وغيرهما من أعظم الأدلة على أنه خالق كل شيء ، وأنه الرب وحده المستحق للعبادة ، وأوضح الله هذا في آيات أخر :

قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**) أي آلا الله ونِعَمَه فَيشكرونها .

الفوائد :

١. أن الخالق هو الله .
٢. من آيات الله العظيمة تسخير الليل والنهار والشمس والقمر .
٣. من آيات الله الليل والنهار .
٤. من آيات الله العظام الشمس والقمر .
٥. رحمة الله بعباده حيث سخر لهم هذه الأشياء لمنفعتهم .
٦. على المسلم أن يتدبر ويتفكر في هذه المخلوقات وأن هذا من كمال العقل .

(**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)**) .

[النحل : ١٤] .

==========

(**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ**) يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه ، **قال ابن عطية** : وتسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله للركوب والإرفاق وغيره ، و{ البحر } الماء الكثير ملحاً كان أو عذباً ، كله يسمى بحراً .

أي ذلله لعباده حتى تمكنوا من ركوبه ، والانتفاع بما فيه من الصيد والحلية ، وبلوغ الأقطار التي تحول دونها البحار ، للحصول على أرباح التجارات ونحو ذلك.

وقال ابن عاشور : ومن تسخير البحر خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك ، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخّرة لحيل الصائدين.

فتسخير البحر للركوب من أعظم آيات الله كما بينه تعالى في مواضع أخر :

فقال تعالى (وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) .

وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

-وذكر في هذه الآية أربع نعم من نعمه على خلقه بتسخير البحر لهم :

(**لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً**) أي لتأكلوا من البحر السمك الطري الذي تصطادونه .

وتكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن.

كما قال تعالى (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً) .

وقال تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) .

قال الخازن : قوله تعالى (لتأكلوا منه لحماً طرياً) فبدأ بذكر الأكل لأنه أعظم المقصود ، لأن به قوام البدن وفي ذكر الطري مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى ، وذلك أن السمك لون كان كله مالحاً لما عرف به من قدرة الله تعالى ، ما يعرف بالطري لأنه لما خرج من البحر الملح الزعاق ، الحيوان الطري الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث بقدرة الله ، وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك أن الله قادر على إخراج الضد من الضد.

جاء في (**التفسير الوسيط**) ووصف- سبحانه- لحم أسماكه بالطراوة، لأن أكله في هذه الحالة أكثر فائدة، وألذ مذاقا، فالمنة بأكله على هذه الحالة أتم وأكمل.

وقال بعض العلماء: وفي وصفه بالطراوة، تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء، فسبحان الخبير بخلقه، ومعرفته ما يضر استعماله وما ينفع، وفيه أيضا إيماء إلى كمال قدرته- تعالى- في خلقه الحلو الطري في الماء المر الذي لا يشرب.

(**وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا**) لحلية- بالكسر- اسم لما يتحلى به الناس ، أي : ومن فوائد تسخير البحر لكم أنه سبحانه أقدركم على الغوص فيه، لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما.

كما قال تعالى (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) واللؤلؤ والمرجان : هما الحلية التي يستخرجونها من البحر للبسها .

والمراد بلبسهم لبس نسائهم لأن زينة النساء بالحلي ، وإنما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة لهم.

قال أبو حيان : وأسند اللبس إلى الذكور ، لأنّ النساء إنما يتزيَّن بالحلية من أجل رجالهن ، فكأنها زينتهم ولباسهم.

(**وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ**) أي : وترى- أيها العاقل- بعينيك السفن وهي تشق البحر بسرعة، متجهة من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى آخر، لا تحرسها إلا رعاية الله تعالى وقدرته، كما قال سبحانه (وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ. وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ. إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِين) .

والتعبير بقوله (وترى..) لاستحضار الحالة العجيبة عن طريق الرؤية البصرية، وهي حالة تدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده. حيث سخر لهم السفن لتجري في البحر بأمره.

قال ابن كثير : أي وترى السفن العظيمة التي تمخر البحر : أي تشقه جارية فيه ، تحمل الأمتعة والأقوات .

كرر في القرآن الامتنان بشق أمواج البحر على السفن .

كقوله (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ) .

وقوله (وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ) .

(**وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ**) ثم بين- سبحانه- النعمة الرابعة من نعم تسخير البحر للناس فقال تعالى: وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ والابتغاء: الطلب للشيء عن رغبة ومحبة.

أي : وسخر لكم البحر- أيضاً- لتستخرجوا منه الحلية، ولتطلبوا فضل الله تعالى ورزقه، عن طريق التجارات والأسفار على ظهر البحر من مكان إلى آخر. سعيا وراء الربح.

الفضل هنا حصول الأرباح بالتجارة ، والوصول إلى البلاد الشاسعة .

.وتكرر في القرآن الامتنان بهذه النعمة أيضاً.

كقوله تعالى (والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس) .

وقوله تعالى (وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

وقوله تعالى (الله الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِيَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

(**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله .

والشكر في الشرع : يطلق من العبد لربه. كقوله هنا (ولعلكم تشكرون) .

وشكر العبد لربه : هو استعماله نعمه التي أنعم عليه بها في طاعته. وأما من يستعين بنعم الله على معصيته فليس من الشاكرين. وإنما هو كنود كفور.

وشكر الرب لعبده المذكور في القرآن كقوله (فَإِنَّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ) وقوله (نَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) هو أن يثبت عبده الثواب الجزيل من العمل القليل. والعلم عند الله تعالى. (أضواء البيان) .

وقد تقدم الكلام على الشكر وفضله .

الفوائد :

١. رحمة الله بعباده في تسخير البحر العظيم لعباده .
٢. أن الله يذكر عباده بهذه النعم لعلهم يشكرون ويتعظون .
٣. من أعظم آيات البحر السفن الكبيرة التي تجري فيه بأمره الله .
٤. رحمة الله بتسهيل الرزق عن طريق البحر .

٥. فضل الشكر .
٦. يجب على المسلم أن يشكر الله على نعمه .

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)) .
[النحل : ١٥-١٦] .

(**وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ**) أي ونصب في الأرض الجبال الراسيات .
(**أَن تَمِيدَ بِكُمْ**) أي لئلا تميد بكم وتضطرب بما عليها .
والميد الحركة والاضطراب يميناً وشمالاً يقال : ماد يميد ميداً.
كما قال تعالى (وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً) .
وقال تعالى (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) .
وقال تعالى (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ) .
(**وَأَنْهَاراً**) أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً . وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع ، وقوي السير وبطئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .
كما قال تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ) .
(**وَسُبُلاً**) أي وجعل فيها سبلاً أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً .
كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) .
وقال تعالى (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً) .
(**لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) أي إلى مقاصدكم وإلى البلد الذي تقصدونه .
(**وَعَلامَاتٍ**) أي وجعل في الأرض دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق. والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الأشياء التي بها يهتدي ، وهذه العلامات هي الجبال والرياح ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق.
(**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**) أي في ظلام الليل .
كما قال تعالى (وهو الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون) .
أي: خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر.
قال الماوردي : أراد الاهتداء بها في جميع الأسفار ، قاله الجمهور.
-والنجوم: هي الكواكب التي ترى في السماء ، قيل: سمي النجم نجماً لأنه يطلع .
اختلف المفسرون فمنهم من قال قوله : {وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ} مختص بالبحر ، لأنه تعالى لما ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين أن من يسيرون فيه يهتدون بالنجم .

ومنهم من قال : بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر وهذا القول أولى ، لأنه أعم في كونه نعمة ولأن الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معاً .

قال البخاري في صحيحه ، قال قتادة: (خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به).

-خلق الله هذه النجوم لحكم:

الأولى: زينة للسماء.

قال تعالى (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ).

وفي هذه الآية إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا.

وقال تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِب).

(وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً) .

الثانية: رجوماً للشياطين ، أي لشياطين الجن الذين يسترقون السمع.

كما في الآية السابقة (وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ).

قال تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً).

الثالثة: علامات يهتدى بها.

كما في هذه الآية .

الفوائد :

١. حكمة الله تعالى في خلق الجبال وهي تثبيت الأرض .
٢. رحمة الله بعباده بخلق الجبال .
٣. من رحمة الله خلق الأنهار والطرق تسهيلاً للناس .
٤. أن النجوم خلقت لحكم عظيمة كما تقدم .
٥. وجوب شكر الله على هذه النعم .

(أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧)) .

[النحل : ١٧] .

==========

(أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) الاستفهام إنكاري : أي تسوون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة ، والنعم الجليلة ، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره ؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل ؟ وهو تبكيت للكفرة ، وإبطال لعبادتهم الأصنام .

قال الخازن : (أفمن يخلق) يعني هذه الأشياء الموجودة المرئية بالعيان ، وهو الله تعالى الخالق لها (كمن لا يخلق) يعني هذه الأصنام العاجزة التي لا تخلق شيئاً البتة ، لأنها جمادات لا تقدر على شيء ، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق هذه الأشياء كلها ، ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله (أفلا تذكرون) يعني أن هذا القدر ظاهر غير خافٍ على أحد فلا يحتاج فيه إلى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه ، كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكره.

قال السعدي : فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره ، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته .

فائدة : ١

أن الذي يستحق العبادة هو من يخلق ويُوجد .... فمن يبرز من العدم إلى الوجود هو ربك الذي يستحق أن يعبد.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىَ تُؤْفَكُونَ) .

فائدة : ٢

ينبه كثيراً على هذا المعنى، ويذكر المشركين بذلك، وأن الخالق هو المستحق للعبادة :

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ).

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ).

وقال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ).

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وفال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

وَقَال تعالى (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا).

وَقَال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ).

وكما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي)

فائدة : ٣

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) ولم يقل إلا الله لفائدتين :

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة.

والثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات.

فائدة : ٤

قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات ، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم ، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم.

فائدة : ٥

قال الشوكاني : وَالِاسْتِدْلَالُ بِالْهِدَايَةِ بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ بِالْخَلْقِ وَقَعَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ :

كَقَوْلِهِ: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) .

وَقَوْلِهِ: (الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى) .

وَقَوْلِهِ: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى).

(وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)) .

[النحل : ١٨] .

==========

(وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا) يخبر تعالى أن بني آدم لا يقدرون على إحصاء نعم الله :

لكثرتها عليهم .

ولخفاء بعضها عليكم.

الإحصاء ضبط العدد ، مأخوذ من الحصى لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنباً للغلط .

قال ابن كثير : يخبر سبحانه عن عجز العباد من تعداد نعمه فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب -رحمه الله-: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من يحصيها العباد ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين.

(إن الله لغفور) يعين لتقصيركم في القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم .

(رحيم) يعني بكم حيث وسع عليكم النعم ، ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير ، والمعاصي.

قال ابن كثير : إن الله لغفور رحيم : أي يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير، وقال ابن جرير: يقول إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

ولذلك قال تعالى في سورة إبراهيم (.. إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) أي : أن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم كفار إلا من هداه الله ووفقه .

والمعنى: أَن الإِنسان لا يقدر نعم الله عليه وهي لا تحصى، فتراه عظيم الظلم لنفسه، شديد الكفران لنعم ربه، فهو دائم الانتفاع بها، والتقصير في أَداءِ شكرها، ووضعها في غير موضعها، ولو أَنصف نفسه وعرف حق ربه لاستدام شكره، والوفاءُ بحقه جل وعلا.

قال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعاً) .

المراد بالإنسان في قوله (إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) نوع معين منه وهو الكافر كما في قوله تعالى (وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) أي: إن الإنسان الكافر لشديد الظلم لنفسه بعبادته لغير الله تعالى، ولشديد الجحود والكفران لنعمه- عز وجل.

فائدة : ١

أن نعم الله على عباده كثيرة عظيمة .

وأن هذه النِّعَم ليس لأحدٍ - كائنًا مَن كان - أن يحصيها غير اللهِ؛ لكثرتها عليهم، وجهلِهم بها.

وأنَّ هذه النِّعَم غير متناهية؛ ومنها الظَّاهرة ومنها الباطِنة، ومنها الجليَّة ومنها الخفيَّة، ومنها المجملة ومنها المفصَّلة.

فائدة : ٢

وجوب شكر هذه النعم .

فائدة : ٣

أمر الله بذكر نعمه .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ).

فائدة : ٤

الشكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح :

بالقلب، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وباللسان، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

والنبي ﷺ كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ، فلما سئل عن ذلك قال : أفلا أكون عبداً شكوراً .

وفي ذلك يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين: أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة الرجِل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة المال: أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله.

فائدة : ٥

- كيف تحقيق الشكر؟

أولاً: سؤال الله ذلك.

كما قال تعالى عن سليمان: (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ).

وقال ﷺ لمعاذ: (يا معاذ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك). رواه أبو داود .

ثانياً: أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت.

قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ).

ثالثاً: أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله يوم القيامة عن شكر نعمه.

قال تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ).

قال ابن كثير: أي ثم لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما ذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة.

رابعاً: أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله.

قال ﷺ (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

فائدة : ٦

أنَّه لا سبيل له إلى ضَبط أجناس هذه النِّعم، فضلًا عن أنواعها أو عن أفرادها، ويَكفي أنَّ مِن بعض أنواعه نِعمة النَّفَس التي لا تَكاد تَخطر ببال العبد؛ فإنَّ له عليه في كل يوم وليلة: أربعة وعشرين ألف نِعمة، فإنَّه يتنفَّس في اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف

نفَسٍ، وكل نفَس نِعمةٌ منه عزَّ وجلَّ، فإذا كان أدنى نِعمة عليه في كلِّ يوم أربعة وعشرين ألف نِعمة؛ فما الظنُّ بما فوق ذلك وأعظم منه؟!

فائدة : ٧

الحثُّ على التفكُّر والتدبُّر في تلك النِّعَم الكثيرة والمتنوعة، التي لا نَستطيع إحصاءها، ولا نطيق عدَّ أنواعها، فضلًا عن أفرادها.

فائدة : ٨

أنَّ مُطالعة الآلاء والنِّعَم تورِث محبَّةَ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ القلوب جُبلَت على حبِّ مَن أنعَم أو أحسَن إليها، وبُغض مَن أساء إليها، ولا أحد أعظَم نعمًا وإحسانًا من الله عزَّ وجل؛ فإنَّ نعَمَه وإحسانه على عبده في كلِّ نفَسٍ ولحظة، وهو يتقلَّب فيها في جميع أحواله.

فائدة : ٩

التنبيه على أنَّ الإنسان في محلِّ التقصير في شُكر تلك النِّعم.

وأنَّ الله يَغفر له تقصيرَه في أداء شُكر نِعَمه، ويَرحمه ببقائها، مع تَقصيره في شُكرها.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)) .

[النحل : ١٩] .

==========

(**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**) يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

فالله لا تخفى عليه خافية، فالسر والعلانية عنده سواء.

قال تعالى (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)**.**

وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**.**

وقال تعالى (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ)

وقال تعالى (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)**.**

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)**.**

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) .

تنبيه :

الله يعلم السر وأخفى من السر : كما تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وفِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (وَأَخْفَى) أَوْجُهٌ مَعْرُوفَةٌ كُلُّهَا حَقٌّ وَيَشْهَدُ لَهَا قُرْآنٌ .

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْلَمُ السِّرَّ : أَيْ مَا قَالَهُ الْعَبْدُ سِـــرًّا وَأَخْفَى أَيْ وَيَعْلَمُ مَا هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ ، وَهُوَ مَا تُوَسْـوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ : أَيْ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَأَخْفَى مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ مَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَفْعَلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ فَاعِلُهُ ،.

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) .

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) .

فَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّهُ الْإِنْسَانُ الْيَوْمَ . وَمَا سَيُسِرُّهُ غَدًا . وَالْعَبْدُ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ .

وفي هذا الترغيب : بإخلاص العمل لله .

فإذا علم العبد أن الله يعلم ولا يخفى عليه شيء فانه يجتهد في الإخلاص وإخفاء الأعمال .

الترهيب : الحذر من إبطان الشرك أو الحسد أو الرياء أو حب الظهور أو طلب العلم لغير الله أو الكرم لغير الله .

الفوائد :

١. إثبات عموم علم الله تعالى لكل شيء ، للسر والعلن ، بل وما هو أخفى من السر .
٢. إثبات صفات الكمال لله تعالى .
٣. وجوب الحذر من غضب الله بفعل معاصيه أو إضمار الشر ، لإن الله لا يخفى عليه شيء .

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)) .

[النحل : ٢٠-٢١] .

==========

(**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا**) أي وهذه الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً .

كما قال الخليل (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى في سورة الأعراف (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

(**وهم يخلقون**) اختلف العلماء على قولين :

قيل : أي : أن الله خالق هذه الأصنام ، لأن الله تعالى هو خالق كل شيء على الحقيقة .

وقيل : أن الناس هم من خلقوا هذه الأصنام أي : نحتوها بأيديهم .

-قال ابن كثير: هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛

-قال الشنقيطي: وقد جرت العادة في القرآن في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز مِنَ العَدَمِ إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدمًا هذا هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم، عليه أن يَعْبُدَ مَنْ خَلَقَه.

قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ).

قال الخازن : قوله تعالى (لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) فإن قلت : قوله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق ، يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً فقوله سبحانه وتعالى : لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية فما فائدة التكرار؟ قلت : فائدته أن المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيئاً فقط والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيئاً وإنهم مخلوقون كغيرهم ، فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار .

(**أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء**) أي هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل .

قال القرطبي : أي هم أموات ، يعني الأصنام ، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر ، أي هي جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة.

وقال الخازن : والمعنى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها الموت لأن الإله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت وهذه أموات غير أحياء ، فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة في غير موضعها.

– قوله (أموات غير أحياء) ومن المعلوم أن الأموات غير أحياء ، لكن الله ذكر ذلك (غير أحياء) ليبين أنه لم يكن فيها حياة ففقدتها ، فهي ليس فيها حياة اصلاً ، [الميت كان حياً ثم مات]

(**وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**) أي لا يدرون متى تكون الساعة ، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء .

قال ابن عطية : و" البعث " هنا هو الحشر من القبور .

– فقوله (لا يشعرون) أي هذه المعبودات ، فهذه المعبودات لا تشعر بوقت البعث .

وأما قوله (أيان يبعثون) : أي لا تشعر هذا المعبودات ، أيان يبعث من عبدها ، وقيل : لا تشعر هذه المعبودات متى تبعث هي ، والأول أقرب .

قال الرازي : والضمير في قوله : {وَمَا يَشْعُرُونَ} عائد إلى الأصنام ، وفي الضمير في قوله : {يُبْعَثُونَ} قولان :

أحدهما : أنه عائد إلى العابدين للأصنام يعني أن الأصنام لا يشعرون متى تبعث عبدتهم ، وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم.

والثاني : أنه عائد إلى الأصنام يعني أن هذه الأصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى قال ابن عباس : إن الله يبعث الأصنام ولها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بها إلى النار.

قيل : أن الضميرين عائدان على الأصنام .

وهو ما رجحه الطبري ، والواحدي ، والسمعاني ، والبغوي ، والقرطبي ، والخازن .

لقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) .

قال ابن الجوزي : وذلك أن الله يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها ، فيتبرؤون من عبادتهم ثم يُؤمر بالشياطين والذين كانوا يعبدونها إلى النار .

وقيل : أن الضمير الأول للأصنام والثاني للعابدين .

أي : لا تشعر الأصنام متى تبعث عبدتها ، وفيه تهكم بالمشركين .

وهذا قول ابن جزي ، وابن كثير ، والسيوطي ، والشوكاني .

الفوائد :

١. إثبات عجز الآلهة التي تعبد من دون الله .

٢. أن الخالق هو الله ، فهو المستحق للعبادة .

٣. تحدي الآلهة التي يعبدها الكفار أن تعبد أي شيء ، ولو حقيراً ، كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) .

٤. أن هذه الآلهة التي يعبدوها هي مخلوقة .

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)) .

[النحل : ٢٢-٢٣] .

==========

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

أي: ليس متعددا، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟ " تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً.

قال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ).

وقال تعالى (فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ).

وقال تعالى (هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ).

وقال تعالى (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

وقال تعالى (وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا).

وقال تعالى (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ).

(فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ) يخبر تعالى أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك .

كما قال تعالى (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) .

وقال تعالى (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) .

وقال سُبحانه (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُون) .

وقال عزَّ وجل (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين) .

قال القرطبي : قال أهل المعاني: وصف الله قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرين والموت والقساوة والانصراف والحميّة والإنكار.

فقال في الإنكار (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) .

وقال في الحمية (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ) .

وقال في الانصراف (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) .

وقال في القساوة (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وقال (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) .

وقال في الموت (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ) .

وقال في الرين (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وقال في المرض (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) .

وقال في الضيق (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) وقال في الطبع (فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) وقال في الختم (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ).

(**وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**) عن عبادة الله تعالى مع إنكار قلوبهم لتوحيده .

(**لاَ جَرَمَ**) أي حقاً .

(**أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**) لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، يعلم ما يخفون وما يظهرون ، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

(**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**) عن عبادته .

وفيه تحريم الكبر وأنه من الكبائر : وللكبر آثار خطيرة :

فهو من صفات أهل النار .

قال ﷺ (ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احتجت الجنة والنار ، فقالت النار : يدخلني الجبارون والمتكبرون) رواه مسلم .

وصاحبه لا يدخل الجنة .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » . قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً . قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ) .

وقال ﷺ (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي) رواه مسلم .

ثالثاً : عقوبتهم يطأهم الناس يوم القيامة .

قال ﷺ (المتكبرون يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم) رواه مسلم .

رابعاً : لا يحب الله المستكبر .

قال تعالى (إنه لا يحب المستكبرين) .

خامساً : لا ينظر الله للمتكبر في إزاره .

قال ﷺ (لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً) متفق عليه .

من أقوال السلف :

قال مسروق : كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله .

وقال بعضهم : إذا رأيت الرجل لجوجاً مماريا معجباً برأيه فقد تمت خسارته .

وعن محمد بن علي قال : ما دخل قلب امرئٍ من الكبر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك .

قال مطرف بن عبد الله : لأن أبيت نائماً وأصبح نائماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً .

قال الذهبي : لا أفلح والله من زكى نفسه أو أعجبته .

قال أبو سليمان الداراني : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة .

قال أبو بكر : لا يحقرن أحدٌ أحداً من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير .

وقال الأحنف بن قيس : ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه .

وقال مالك بن دينار : كيف يتكبر من أوله نطفة مذِرَة ، وآخره جيفة قَذِرَة ، وهو فيما بين ذلك حامل عَذِرة .

وقال حاتم الأصم : أصل المصيبة ثلاثة أشياء : الكبر ، والحرص ، والحسد .

يا ابنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

وقال عمر بن عبد العزيز : إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة .

درجات التكبر :

الأول : التكبر على الله .

وهو أفحش أنواع الكبر ، مثل فرعون حين استكبر وقال : أنا ربكم الأعلى ولذلك قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) .

ثانياً : التكبر على الرسل .

كما فعلت الأقوام المكذبة مع رسلها ، فترفعت عن الانقياد لهم كما حكى الله عنهم (أنؤمن لبشرين مثلنا) وقال تعالى عنهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا) .

وهذا الكبر قريب من الأول ، وإن كان دونه .

الثالث : التكبر على العباد .

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره .

وهذا دون الأول والثاني بكثير ، لكنه عظيم لأمرين :

أ- أن الكبر والعز والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد الضعيف المملوك العاجز لا يليق به إلا الذل لله والانكسار .

ب- أنه يدعو إلى مخالفة الله في أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عباد الله استنكف عن قبوله .

الفوائد :

١. أن الإله المعبود بحق هو الله الواحد الأحد .
٢. تحريم الشرك مع الله تعالى .
٣. خبث قلوب الكفار بإنكار هذا الأمر المعروف بالفطرة .
٤. أن الاستكبار سبب لرد الحق وسبب للمعاندة .
٥. تهديد هؤلاء الكفار بأن الله يعلم كل شيء ، وسيجازيهم على ذلك .
٦. ذم صفة التكبر ، وأن الله لا يحبها .
٧. فضل التواضع لله تعالى .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (٢٥)) .

[النحل : ٢٤-٢٥] .

==========

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُم) يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُم .

–قال أبو السعود : القائلُ : الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعضٌ منهم على طريق التهكم .

(قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) قالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَيْ لَمْ يُنْزِلْ شَيْئًا، إِنَّمَا هَذَا الَّذِي يُتْلَى عَلَيْنَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، أَيْ مَأْخُوذٌ مِنْ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ .

–قال الشوكاني : والأساطير : الأباطيل والترّهات التي يتحدّث الناس بها عن القرون الأولى.

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) أَيْ يَفْتَرُونَ على الرسول ويقولون أقوالا متضادة مختلفة كُلُّهَا بَاطِلَةٌ، .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) .

وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ فَمَهْمَا قَالَ أَخْطَأَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: سَاحِرٌ وَشَاعِرٌ وَكَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ أَمْرُهُمْ إِلَى مَا احْتَلَقَهُ لَهُمْ شَيْخُهُمُ الْوَحِيدُ الْمُسَمَّى بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ لَمَّا فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، أَيْ يُنْقَلُ وَيُحْكَى، فَتَفَرَّقُوا عَنْ قَوْلِهِ وَرَأْيِهِ قبحهم الله .

–قال الشنقيطي : ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار إذا سئلوا عما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ قالوا : لم ينزل عليه شيء. وإنما هذا الذي يتكلم به من أساطير الأولين ، نقله من كتبهم.

والأساطير : جمع أسطورة أو إسطارة ، وهي الشيء المسطور في كتب الأقدمين من الأكاذيب والأباطيل. أصلها من سطر : إذا كتب. ومنه قوله تعالى : { وَكِتَابٍ مُّسْطُورٍ) . وقال بعض العلماء : الأساطير : الترهات والأباطيل.

وأوضح هذا المعنى في آيات أخر. كقوله (وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) .

وقوله (وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين) .

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُون) أَيْ : إِنَّمَا قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أَوْزَارَهُمْ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَتْبَعُونَهُمْ وَيُوَافِقُونَهُمْ أَيْ يَصِيرُ عَلَيْهِمْ خَطِيئَةُ ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَخَطِيئَةُ إِغْوَائِهِمْ لِغَيْرِهِمْ وَاقْتِدَاءِ أُولَئِكَ بِهِمْ .

قال ابن الجوزي : وإنما قال (كاملة) لأنه لم يُكفّرْ منها شيء بما يصيبهم من نكبة أو بلية كما يكفّر عن المؤمن .

وقال بعض العلماء : ذكرت لأن السياق سياق تهديد، والتأكيد باللفظ تأكيد على المعنى، والتأكيد في سياق التهديد زيادة في الوعيد .

–قال الشوكاني : (وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ) أي : ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم ، لأن من سنّ سنّة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها.

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث (مَنْ دَعَا إِلَى هَدْيٍ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً) .

وَقَالَ تعالى (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُون) .

وجاء التعبير بـ (من) في قوله تعالى (ومن أوزار الذين يضلونهم) ليدل على التبعيض، أي أن الكفار يحملون آثامهم كاملة، بينما يحملون بعض آثام من يضلونهم؛ لأن آثام الذين أضلوا ليست كلها بسبب هؤلاء الكفار؛ فبعضها بسبب هذا الإضلال المذكور وبعضها بسبب اكتسابهم المستقل» .

فإن قيل : ما الجواب عن قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ؟

فالجواب – والله تعالى أعلم – أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين :

أحدهما – وزر ضلالهم في أنفسهم.

والثاني – وزر إضلالهم غيرهم. لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً. وإنما أخذ بعمل غيره لأنه هو الذي سنه وتسبب فيه ، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله ، فصار غير مناف لقوله (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وزر أخرى) الآية.

فالواقع : أن هؤلاء الضالين ما حملوا إلا أوزار أنفسهم لأنهم تحمَّلوا وزر الضلال ووزر الإضلال .

–قال ابن عطية : قوله { ليحملوا } يحتمل أن تكون لام العاقبة لأنهم لم يقصدوا بقولهم { أساطير الأولين } "ليحملوا الأوزار"، ويحتمل أن يكون صريح لام كي ، على معنى قدر هذا ، ويحتمل أن تكون لام الأمر ، على معنى الحتم عليهم بذلك ، والصغار الموجب لهم .

–قال القرطبي : قيل : لام العاقبة ؛ كقوله (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً) .

أي قولهم في القرآن والنبيّ أدّاهم إلى أن حملوا أوزارهم ؛ أي ذنوبهم.

وقيل : هي لام الأمر ، والمعنى التهدّد.

–قال الخازن : اللام في (ليحلموا) لام العاقبة وذلك أنهم وصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين ، كانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم يعني ذنوب أنفسهم .

–قوله { ومن } للتبعيض ، وذلك أن هذا الواهن المضل يحمل وزر نفسه كاملاً ويحمل وزراً من وزر كل مضل بسببه ولا تنقص أوزار أولئك .

قوله (بغير علم) يجوز أن يريد بها المضل أي أضل بغير برهان قام عنده ، ويجوز أن يريد {بغير علم} من المقلدين الذي يضلون .

قال القرطبي (بِغَيْرِ عِلْمٍ) أي يضلون الخلق جهلاً منهم بما يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لما أضلوا.

–قال الشنقيطي : قوله في هذه الآية الكريمة : {بغير علم} يدل على أن الكافر غير معذور بعد إبلاغ الرسل المؤيد بالمعجزات، الذي لا لبس معه في الحق، ولو كان يظن أن كفره هدى، لأنه ما منعه من معرفة الحق مع ظهوره إلا شدة التعصب للكفر، كما قدمنا الآيات الدالة على ذلك في الأعراف.

كقوله (إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) .

وقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) .

الفوائد :

١. تكذيب الكفار بالقرآن وادعاءهم أنه أساطير .
٢. شدة ذنب وجرم هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن ، وأنهم سيحملون هذا الذنب .
٣. أن هؤلاء يحملون ذنوبهم وذنوب من اتبعهم ، لأنهم هم السبب في ضلالهم .

٤. التحذير من فهل مثل فعل هؤلاء الكفار ، لأن من فعل ذلك حمل ذنبه وذنب من أضله .

٥. ذم الجهل .

٦. إثبات القيامة يوم القيامة .

٧. إثبات الحساب والجزاء .

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)) .

[النحل : ٢٦] .

==========

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم عليهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل .

والمراد بالذين من قبلهم: الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة، كقوم نوح وهود وصالح .

قيل : هُوَ النمرود الَّذِي بَنَى الصَّرْحَ .

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ بُخْتُنَصَّرُ .

وَقَالَ آخَرُونَ: هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَلِ لِإِبْطَالِ مَا صَنَعَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ .

كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ (وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً) أَيِ احْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شِرْكِهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، كَمَا يَقُولُ لَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً) .

–قال الرازي : اعلم أن المقصود من الآية المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار ، وفي المراد بالذين من قبلهم قولان:

القول الأول : وهو قول الأكثر من المفسرين أن المراد منه نمروذ بن كنعان بنى صرحاً عظيماً ببابل طوله خمسة آلاف ذراع.

وقيل فرسخان ، ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها ، فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء.

والقول الثاني : وهو الأصح ، أن هذا عام في جميع المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين.

ومن المفسرين الذين رجحوا أن الكلام على حقيقته، الإمام ابن جرير فقد قال: وأولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال: معنى ذلك : تساقطت عليهم سقوف بيوتهم، إذ أتى على أصولها وقواعدها أمر الله، فانكفأت بهم منازلهم، لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان وخرّ السقف.

وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر الأعرف منها، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما وجد إليه سبيل .

–قال ابن عطية : قال ابن عباس وغيره من المفسرين : الإشارة ب { الذين من قبلهم } إلى نمرود الذي بنى صرحاً ليصعد فيه إلى السماء على زعمه ، فلما أفرط في علوه وطوله في السماء فرسخين على ما حكى النقاش ، بعث الله عليه ريحاً فهدمته ، " وخر سقفه " عليه وعلى أتباعه ، وقيل : جبريل هدمه بجناحه وألقى أعلاه في البحر وانحقف من أسفله .

وقالت فرقة أخرى : المراد ب { الذين من قبلهم } جميع من كفر من الأمم المتقدمة ومكر ونزلت فيه عقوبة من الله تعالى ، وقوله على هذا { فأتى الله بنيانهم من القواعد } إلى آخر الآية ، تمثيل وتشبيه ، أي حالهم بحال من فعل به هذا .

–قال الشوكاني : ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به نمروذ بن كنعان حيث بنى بناءً عظيماً ببابل ، ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها ، فأهبّ الله الريح ، فخرّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا ، والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين من المتقدّمين الذين يحاولون إلحاق الضرّ بالمحقين.

وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلى الله عليه وسلم بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم .

–قال الشنقيطي : ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار الذين كانا قبل كفار مكة قد مكروا. وبين ذلك في مواضع أخر ، كقول (وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعاً) .

وقوله (وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال) .

وبين بعض مكر كفار مكة بقوله (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ) .

وذكر بعض مكر اليهود بقوله (وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين) .

وبين بعض مكر قوم صالح بقوله (وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) .

وذكر مكر قوم نوح بقوله (وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) .

وبين مكر رؤساء الكفار في قوله (بَلْ مَكْرُ الليل والنهار إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بالله) .

والمكر : إظهار الطيب وإبطان الخبيث ، وهو الخديعة.

وقد بين جل وعلا أن المكر السيئ لا يرجع ضرره إلا على فاعله. وذلك في قوله (وَلاَ يَحِيقُ المكر السيئ إِلاَّ بِأَهْلِهِ) .

(**فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ**) أَيِ : اجتثه من أصله وأبطل عملهم .

(فأتى الله بنيانهم..) أي : أهلكهم، كما في قوله تعالى (فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) .

ويقال: أتى فلان من مأمنه أي: نزل به الهلاك من جهة أمنه. وأتى عليه الدهر. أي : أهلكه وأفناه. ومنه الأتوّ. وهو الموت والبلاء.

والقواعد: جمع قاعدة. وهي أساس البناء، وبها يكون ثباته واستقراره .

كقوله تَعَالَى (كُلَّما أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ) .

وَقَوْلُهُ (فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصارِ).

قيل : إن هذا محض التمثيل ، والمعنى أنهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فجعل الله تعالى حالهم في تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين فانهدم ذلك البناء ، وضعفت تلك الأساطين ، فسقط السقف عليهم.

ونظيره قولهم : من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه.

وقيل : إن المراد منه ما دل عليه الظاهر ، وهو أنه تعالى أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته ، والأول أقرب إلى المعنى.

–قال الخازن : وإن حملنا تفسير الآية على القول الثاني : وهو حملها على العموم كان المعنى أنهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله تعالى ، وجعل هلاكهم مثل هلاك بنوا بنياناً وثيقاً شديداً ودعموه بالأساطين فانهدم ذلك البنيان ، وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ، ومنه المثل السائر على ألسنة الناس : من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه.

(**فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ**) أي : سقط وانهدم عليهم من فوقهم .

–قال الرازي : ففيه سؤال : وهو أن السقف لا يخر إلا من فوقهم ، فما معنى هذا الكلام.

وجوابه من وجهين : الأول : أن يكون المقصود بالتأكيد.

والثاني : ربما خر السقف ، ولا يكون تحته أحد ، فلما قال : {فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ} دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته ، وحينئذ يفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها.

(**وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ**) الهلاك والدمار .

(**مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُون**) ولا يحتسبون بأنه سيأتيهم من هذه الجهة، بل كانوا يتوقعون أن ما شيدوه سيحميهم من المهالك .

الآية مشهد كامل للدمار والهلاك، وللسخرية من مكر الماكرين، وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُرد، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط .

الفوائد :

١. أن الله بالمرصاد للكافرين ومكرهم .

٢. تهديد كفار قريش .

٣. تهديد لكل مشرك وكافر أنهم مهما خططوا فسيدمرهم الله .

٤. قوة الله تعالى العظيمة .

٥. أن عذاب الله يأتي من حيث لا يشعر الكفار .

(**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)**) .

[النحل : ٢٧]

==========

ثم بين سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا.

(**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ**) أَيْ : يُظْهِرُ فَضَائِحَهُمْ، وَمَا كَانَتْ تُجِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ فيجعله علانية .

كقوله تعالى (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أي يظهر وَتَشْتَهِرُ .

وكقوله (أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القبور وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور) أي : أظهر علانية ما كانت تكنه الصدور ،

كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فلان بن فلان) .

وهكذا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنَ الْمَكْرِ ويخزيهم الله على رؤوس الْخَلَائِقِ .

وكذلك يخزيهم بإدخالهم النار كما قال تعالى (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) .

قوله تعالى (يوم القيامة) سميت بذلك:

لقيام الناس من قبورهم ، كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

ولقيام العدل فيه ، كما قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ).

ولقيام الأشهاد ، كما قال تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) فهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة ، والرسول ﷺ يكون شهيداً على هذه الأمة.

(**وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ**) أي : وَيَقُولُ لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُقَرِّعًا لَهُمْ وَمُوَبِّخًا أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ تحاربون وتعادون في سبيلهم أَيْنَ هُمْ عَنْ نَصْرِكُمْ وَخَلَاصِكُمْ هَاهُنَا؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ، فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ .

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر :

كقوله (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) .

وقوله (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ) .

وقوله (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا) .

وقوله (حتى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا) .

قال بعض العلماء : قوله تعالى (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ ...) فيه الجَمعُ بينَ الإهانةِ بالفعلِ، والإهانةِ بالقولِ بالتَّقريعِ والتَّوبيخ .

(**قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**) وَهُمُ السَّادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمُخْبِرُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

–قال الشوكاني : قيل : هم العلماء ، قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم ، ولا يلتفتون إلى وعظهم ، وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة.

وقيل : هم الأنبياء ، وقيل : الملائكة ، والظاهر : الأوّل ، لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك وإن كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم ، بل هم أعرق فيه لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف ، وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة ، ولا يقدح في هذا جواز الإطلاق ، لأن المراد الاستدلال على الظهور .

قال ابنُ عطيةَ : (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) الصَّوابُ: أن يَعُمَّ جميعَ مَن آتاه اللهُ عِلمَ ذلك مِن جَميعِ مَن حضَرَ الموقِفَ، مِن ملَكٍ أو إنسيٍّ، وغيرِ ذلك .

وقال ابن عاشور: والذينَ أوتُوا العِلمَ: هم الذين آتاهم اللهُ عِلمَ الحقائِقِ مِن الرُّسُلِ والأنبياءِ– عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ– والمؤمِنونَ، كقوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ .

قال البقاعي : قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ عدلَ عن أن يقولَ: (أعداؤُهم) أو (المؤمِنونَ) ونحوُه؛ إجلالًا لهم بوَصفِهم بالعِلمِ الذي هو أشرَفُ الصِّفاتِ؛ لِكَونِه مَنشأَ كُلِّ فَضيلةٍ، وتَعريضًا بأنَّ الحامِلَ للكُفَّارِ على الاستِكبارِ الجَهلُ الذي هو سبَبُ كُلِّ رَذيلةٍ .

(**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ**) أي : الفضيحة والعذاب محيط اليوم بِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَا يضره وما لا ينفعه

–قوله تعالى (وقال الذين ...) إيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه وتحتمه حسبما هو المعهود في أخباره تعالى كقوله سبحانه (وَنَادَى أصحاب الجنة) .

–قال البيضاوي : وفائدة قولهم إظهار الشماتة بهم وزيادة الإهانة ، وحكايته لأن يكون لطفاً ووعظاً لمن سمعه.

الفوائد :

١. تهديد الكفار بيوم القيامة .

٢. إثبات يوم القيامة .

٣. الخزي والذل للكفار يوم القيامة .

٤. من العذاب النفسي للكفار أنه يقال : أين الذين كنتم تعبدون في الدنيا ينصرونكم وينقذونكم .

٥. فضل العلم بالله ورسوله .

٦. أن العلم الممدوح ما أدى إلى خشية الله والزهد في الدنيا .

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)) .

[النحل : ٢٨-٢٩] .

==========

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) أي: تقبض أرواحهم.

وسمي الميت متوفى لأنه استوفى رزقه وأجله وعمله .

جاء في آية أن الله هو الذي يتوفى كما قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) وجاء في آية أخرى أن ملك الموت هو الذي يقبض الأرواح كما قال تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) وجاء في آية أخرى أن الملائكة هم الذي يقبضون الأرواح كقوله تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ).

الجمع: الموت يكون بإذن الله، وقبض الروح يكون بملك الموت، ومعه الملائكة تساعده.

(ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) بالكفر .

(فَأَلْقَوُا السَّلَمَ) يعني أنهم استسلموا وانقادوا لأمر الله الذي نزل بهم .

–قال الشنقيطي : أي الاستسلام والخضوع ، والمعنى : أظهروا كمال الطاعة والانقياد ، وتركوا ما كانوا عليه من الشقاق. وذلك عندما يعاينون الموت ، أو يوم القيامة. يعنى أنهم في الدنيا يشاقون الرسل : أي يخالفونهم ويعادونهم ، فإذا عاينوا الحقيقة ألقو السلم: أي خضعوا واستسلموا وانقادوا حيث لا ينفعهم ذلك.

الانقياد عند معاينة الموت لا ينفع ، كما قدمنا ، وكما دلت عليه آيات كثيرة.

كقوله (وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن) .

وقوله (فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا) .

وقوله (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين) إلى غير ذلك من الآيات.

(مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) يعني أن الذين تتوفاهم الملائكة في حال كونهم ظالمي أنفسهم إذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم وقالوا : ما كنا نعمل من سوء ، والمعنى : أنهم ينكرون ما كانوا يعملون من السوء ، وهو الكفر وتكذيب الرسل والمعاصي.

وبين في مواضع أخر : أنهم ينكرون ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي كما ذكر هنا. وبين كذبهم في ذلك أيضاً.

كقوله (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) .

وقوله (قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين) .

وقوله (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون) .

وقوله (وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً) أي : حراماً محرماً أن تمسونا بسوء. لأنا لم نفعل ما نستحق به ذلك ، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه :

فإن قيل : هذه الآيات تدل على أن الكفار يكتمون يوم القيامة ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي .

كقوله عنهم (والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) .

وقوله (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء) ونحو ذلك. مع أن الله صرح بأنهم لا يكتمون حديثاً في قوله (وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً) .
فالجواب – هو ما قدمنا من أنهم يقولون بألسنتهم : والله ربنا ما كنا مشركين. فيختم الله على افواههم. وتتكلم ايديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون ، فالكتم باعتبار النطق بالجحود وبالألسنة ، وعدم الكتم باعتبار شهادة أعضائهم عليهم ، والعلم عند الله تعالى. (أضواء البيان) .

(**بَلَى**) تكذيب لهم .

(**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) أي: فيُقالُ لهم: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ، بل كُنتُم تَعمَلونَ السُّوءَ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بالذي كُنتُم تَعمَلونَه مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فلا ينفَعُكم إنكارُكم، وسيُجازيكم على أعمالِكم .

(**فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ**) أي: يُقالُ لهم: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ، فكُلٌّ منكم يُعذَّبُ في طبقةٍ مِن طَبَقاتِها بحسَبِ عمَلِه، ماكثينَ في جهنَّمَ أبدًا .

وجهنم : اسم من أسماء النار، سميت بذلك إما لبعد قعرها، من قولهم: بئر جهنام، إذا كانت عميقة القعر، وقيل: مشتقة من الجهومة وهي الغلظة، سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب، فتكون ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي.

لم يبين هنا عدد أبوابها ، ولكنه بين ذلك في " سورة الحجر " في قوله جل وعلا (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)

(**خَالِدِينَ فِيهَا**) لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وقد ذكر الله تأبيده لأهل النار في ثلاث آيات من القرآن الكريم.

في سورة النساء: قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً).

وفي سورة الأحزاب: قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً).

وفي سورة الجن: قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

قال بعض العلماء : إنَّما صرَّحَ تعالى بذِكرِ الخُلودِ؛ ليَكونَ الغَمُّ والحُزنُ أعظَم .

(**فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِين**) أي : فلبئس مقام المتعاظمين عن الإيمان بالله جهنم .

كما قال تعالى (وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) .

وَصفُ التكَبُّرِ دَليلٌ على استِحقاقِ صاحِبِه النَّارَ .

الفوائد :

١. إثبات الملائكة .
٢. إثبات الملائكة التي تقبض الأرواح .
٣. أن الكفار عند الاحتضار يدعون أنهم لم يشركوا لكن لا ينفعهم ذلك .
٤. أن الشرك بالله أعظم الظلم .
٥. أن الله لا يغفر لمن مات مشركاً بالله .
٦. ندم الكفار عند الاحتضار ويوم القيامة لكن ذلك لا ينفعهم .
٧. من شروط التوبة أن تكون في الوقت المقبول وهو قبل الاحتضار .
٨. إثبات عموم علم الله تعالى .
٩. إثبات جهنم .

١٠. إثبات أن النار لها أبواب .
١١. أن الكفار مخلدون في جهنم .
١٢. ذم التكبر .
١٣. أن التكبر من صفات الكفار .
١٤. سنة الله في مكر أعداء الرسل بالرسل وأتباعهم .
١٥. أن أعداء الرسل تشابه مكرهم وعداؤهم للرسل .
١٦. أن الله يمكر بالماكرين ويبطل مكرهم ويفسده .
١٧. أن يوم القيامة يفضح الله أعداء الرسل من الكفار وغيرهم .
١٨. التهكم بالآلهة التي عبدت من دون الله .
١٩. فضل العلم وحملته المبلغين عن الله ورسوله .
٢٠. شدة خزي وعذاب الكفار يوم القيامة .

(وقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)) .

[النحل : ٣٠-٣٢] .

==========

(وقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا) هذَا خَبَرٌ عَنِ السُّعَدَاءِ، بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْأَشْقِيَاءِ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قِيلَ لَهُمْ (مَاذَا أَنزلَ رَبُّكُمْ) فَقَالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ: لَمْ يُنْزِلْ شَيْئًا، إِنَّمَا هَذَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَهَؤُلَاءِ (قَالُوا خَيْرًا) أَيْ: أَنْزَلَ خَيْرًا، أَيْ: رَحْمَةً وَبِرَكَةً وَحُسْنًا لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَآمَنَ بِه ، إذ لفظ «خيرا» من الألفاظ الجامعة لكل فضيلة .

وصفهم بالتقوى، للإشعار بأن صيانتهم لأنفسهم عن ارتكاب ما نهى الله- تعالى- عنه، وخوفهم منه- سبحانه- ومراقبتهم له، كل ذلك حملهم على أن يقولوا هذا القول السديد .

-قال الآلوسي : (وقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ) أي المؤمنين ، وصفوا بذلك إشعاراً بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئ من التقوى.

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرها النبي ﷺ بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده.

وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك).

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.
كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). ولم يقل أيكم أكثر عملاً.
وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).
وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).
فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا خلل ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون .
قال السعدي: ... فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.
(**حَسَنَةٌ**) وهي الحياة الطيبة .
كما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة.
تنبيه :
قال ابن عطية : واختلف المتأولون في قوله تعالى { للذين أحسنوا } إلى آخر الآية :
فقالت فرقة : هو ابتداء كلام من الله مقطوع مما قبله ، لكنه بالمعنى وعد متصل بذكر إحسان المتقين في مقالتهم .
وممن اختار هذا القول : ابنُ جريرٍ ، والواحدي ، والخازن، والقاسمي، وابنُ عاشور.
وقالت فرقة : هو من كلام الذين { قالوا خيراً } وهو تفسير للخير الذي أنزل الله في الوحي على نبينا خبراً أن من أحسن في الدنيا بطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة .
وممن اختار هذا القول : الزمخشري ، والرازي ، وابنُ جزي ، وأبو حيان، وابنُ كثيرٍ .
(**وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ**) أخبر تعالى بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا .
أي : ولدار الآخرة وما فيها من عطاء غير مقطوع، خير لهؤلاء المتقين مما أعطيناهم في الدنيا، ولنعم دارهم هذه الدار.
–قال الخازن (ولدار الآخرة خير) يعني ما لهم في الآخرة مما أعد الله لهم في الجنة خير مما يحصل لهم في الدنيا .
كما قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى) .
وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ) .
وقال تعالى (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأبْرَارِ) .
وقال تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذلكم لِلَّذِينَ اتقوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ الله والله بَصِيرٌ بالعباد) .
وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولَى) .
ووصفها– سبحانه– بالآخرة، لأنها آخر المنازل، فلا انتقال عنها إلى دار أخرى، كما قال– تعالى–: خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا.
والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ما يدل عليه، والتقدير: ولنعم دار المتقين، دار الآخرة .

قال الشنقيطي : وإنما قيل لتلك الدار : الدار الآخرة. لأنها هي آخر المنازل ، فلا انتقال عنها ألبتة إلى دار أخرى.

والإنسان قبل الوصول إليها ينتقل من محل إلى محل ، فأول ابتدائه من التراب ، ثم انتقل من أصل التراب إلى أصل النطفة ، ثم إلى العلقة ، قم إلى المضغة ، ثم إلى العظام ، ثم كسا اله العظام لحماً ، وأنشأها خلقاً آخر ، وأخرجه للعالم في هذه الدار ، ثم ينتقل إلى القبر، ثم إلى المحشر، ثم يتفرقون (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً) فسالك ذات اليمين إلى النار، وسالك ذات الشمال إلى النار (وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة فأولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ).

فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار – فعند ذلك تلقى عصا التسيار ، ويذبح الموت ، ويقال : يأهل الجنة خلود فلا موت! ويأهل النار خلود فلا موت! ويبقى ذلك دائماً لا انقطاع له ولا تحول عنه إلى محل آخر.

فهذا معنى وصفها بالآخرة. كما أوضحه جل وعلا بقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ) .

(**وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**) أي : ولنعم دار المتقين دار الآخرة .

كما قال تعالى (وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ) .

–قال القرطبي : (وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين) فيه وجهان :

قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا ؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة.

وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة ؛ وهذا قول الجمهور.

–قال الخازن : (ولنعم دار المتقين) يعني الجنة وقال الحسن : هي الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون منها إلى الآخرة والقول الأول أولى هو قول جمهور المفسرين لأن الله فسر هذه الدار بقوله (جنَّات عدن) .

(**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**) أي: بَساتينُ إقامةٍ يَدخُلُها المتَّقونَ، ولا يَرحَلونَ عنها .

والعدن في لغة العرب : الإقامة. فمعنى جنات عدن : جنات إقامة في النعيم ، لا يرحلون عنها ، ولا يتحولون.

وبين في آيات كثيرة : أنهم مقيمون في الجنة على الدوام ،كما أشار له هنا بلفظة " عدن " .

كقوله (لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً) .

وقوله (الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ) الآية. والمقامة : الإقامة.

وقوله (إِنَّ المتقين فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) .

وقوله (وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً) .

وللجنة أسماء:

أولاً: الجنة.

وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار ، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور.

قال تعالى (سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ).

ثانياً: دار السلام.

فهي السالمة من كل بلية وآفة ومكروه.

قال تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون).

وقال تعالى (وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

ثالثاً: دار الخلد.

وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً كما قال تعالى (عطاء غير مجذوذ).

قال تعالى (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء ومصيراً).

رابعاً: دار المقامة.

لأنهم مقيمون بها أبداً ، لا يموتون ولا يتحولون منها أبداً.

قال تعالى حكاية عن أهلها (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ).

خامساً: جنة المأوى.

قال تعالى (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

سادساً: جنات عدن.

أي جنات إقامة ، يقال عَدَنَ بالمكان أي أقام به.

قال تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً).

وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

سابعاً: دار الحيوان.

أي هي الدار التي لا تنغيص فيها ولا نفاد ، ولا تفنى ولا تنقطع.

قال تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

ثامناً: الفردوس.

والفردوس: اسم من أسماء الجنة ومعناه: البستان الذي يجمع كل ما فيه البساتين.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

وقال تعالى (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

(**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**) أي: تجري من تحت قصورها الأنهار، وليس المعنى أنها تجري من تحت أرضها، والجري هو سير الماء على الأرض، والأنهار جمع نهر وهو الماء الكثير، وهذه الأنهار تجري من غير أخدود كما قال بعض السلف.

قال ابن القيم : وهذا يدل على أمور:

أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

– وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّىً).

– قال ابن القيم: فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا.

فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصاً، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها، ويجريها في غير أخدود، وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها، كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.

وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، وتجري من غير أخدود.

قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضانِ

(**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ**) مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

كما قال تعالى (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ . الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقوله (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) .

وقوله (لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً) .

وقوله (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَآءُ المحسنين) .

وقوله (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) .

وفي الحديث (إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم ، فلا يشتهي أحد منهم شيئًا إلا أمطرته عليهم، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أترابًا، فيكون ذلك .

-قال الرازي : (لَّهُمْ فِيهَا مَا يشاؤون) يعني هذه الحالة لا تحصل إلا في الجنة ، لأن قوله (لَّهُمْ فِيهَا مَا يشاؤون) يفيد الحصر ، وذلك يدل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريده في الدنيا.

(**كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ**) أي : مثل هذا الجزاء الحسن، يجزى الله- تعالى- عباده المتقين، الذين جنبوا أنفسهم مالا يرضيه يدل على ان تقوى الله هو السبب الذي به تنال الجنة.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخر.

كقوله (تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً) .

وقوله (وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقوله (إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) .

وقوله (إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) إلى غير ذلك من الآيات.

(**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ**) أي : تقبض أرواحهم ملائكة الموت .

(**طَيِّبِينَ**) أي : مطهرين من دنس الشرك والفسوق والعصيان .

(**يَقُولُونَ**) أي : الملائكة لهؤلاء المتقين عند قبض أرواحهم .

(**سَلامٌ عَلَيْكُمُ**) أي : أمان عليكم من كل شر ومكروه .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نزلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيم).

وقوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ) .

وقوله (وَالملاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار) .

والبشارة عند الموت ، وعند دخول الجنة من باب واحد. لأنها بشارة بالخير بعد الانتقال إلى الآخرة.

ويفهم من صفات هؤلاء الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ويقولون لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة – أن الذين لم يتصفوا بالتقوى لم تتوفهم الملائكة على تلك الحال الكريمة ، ولم تسلم عليهم ، ولم تبشرهم.

وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر :

كقوله (الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السلم) .

وقوله (إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ – إلى قوله – { وَسَآءَتْ مَصِيراً) .

وقوله (وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) .

(**ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) أي: ويقولون أيضًا: ادخُلوا الجَنَّةَ بسبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في حياتِكم الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ طلبًا لِمَرضاةِ اللهِ تعالى

إن قيل: ما الجمع بين هذه الآية وأمثالها، وبين قوله ﷺ (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله)؟

قيل: أن مجرد دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله، كما في الحديث، وأما اقتسام منازل الجنة ودرجاتها فإن ذلك يتفاوت بتفاوت الأعمال.

وهذا مذهب ابن بطال، والقرطبي في تفسيره.

وقيل: إن دخول الجنة برحمة الله، ومن رحمة الله وفق العبد للعمل ويسره له حتى به الجنة، فهذا العمل من رحمة الله

قال النووي: ... وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى (اُدْخُلُوا الْجَنَّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَتِلْك الْجَنَّة الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَنَحْوهمَا مِنْ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّ الْأَعْمَال يُدْخَل بِهَا الْجَنَّة، فَلَا يُعَارِض هَذِهِ الْأَحَادِيث، بَلْ مَعْنَى الْآيَات: أَنَّ دُخُول الْجَنَّة بِسَبَبِ الْأَعْمَال، ثُمَّ التَّوْفِيق لِلْأَعْمَالِ وَالْهِدَايَة لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَقَبُولهَا بِرَحْمَةِ اللَّه تَعَالَى وَفَضْله، فَيَصِحّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُل بِمُجَرَّدِ الْعَمَل. وَهُوَ مُرَاد الْأَحَادِيث، وَيَصِحّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا، وَهِيَ مِنْ الرَّحْمَة. وَاَللَّه أَعْلَم.

– وقال ابن رجب: ... وفيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ سببٌ لدخول الجنَّة، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

وأما قولُه ﷺ (لَنْ يدخُلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّة بِعمَلِه) فالمراد – والله أعلم – أنَّ العملَ بنفسه لا يستحقُّ به أحدٌ الجنَّة لولا أنَّ الله جعله – بفضله ورحمته – سبباً لذلك، والعملُ نفسُه من رحمة الله وفضله على عبده، فالجنَّةُ وأسبابُها كلٌّ من فضل الله ورحمته.

قال الخازن : لا تعارض بينها ، وبين هذا الحديث بل معنى الآيات : أن دخول الجنة بسبب الأعمال والتوفيق للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة ، والفضل والمنة والله أعلم بمراده.

الفوائد :

١. فضل أهل التقوى ، وأنهم يؤمنون بما أنزل الله ويصدقون به .
٢. إثبات علو الله .
٣. أن القرآن منزل .
٤. أن من أحسن في هذه الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة ، ففيه الحث على الإحسان ، حتى على الحيوانات كما قال ﷺ (إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ...) .
٥. أن الجزاء من جنس العمل .

٦. وجوب استغلال هذه الدنيا بالإحسان والعمل المقرب إلى الرحمن .
٧. الثناء على الدار الآخرة حيث لا موت فيها ، وهم ، ولا غم ،
٨. ذم الدنيا دار الهموم والغموم والمصائب ، وفي الحديث ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي .
٩. الحث على التقوى ، فإن الجنة دار المتقين .
١٠. إثبات الجنة .
١١. إثبات اسم من أسماء الجنة وهو عدن .
١٢. ذكر بعض نعيم الجنة .
١٣. بشرى المتقين عند موتهم بالنعيم والسلامة من العقاب .
١٤. الحرص على الأعمال الصالحة .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (٣٤)) .

[النحل : ٣٣-٣٤] .

==========

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) يقول تعالى متهددًا للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم .

قال ابن عطية : (ينظرون) معناه ينتظرون

قال ابن عاشور : والكلام موجه إلى النبي ﷺ تذكيراً بتحقيق الوعيد وعدم استبطائه وتعريضاً بالمشركين بالتحذير من اغترارهم بتأخّر الوعيد وحثّاً لهم على المبادرة بالإيمان.

(أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ) أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال.

واختار هذا ابن جرير ، وابن كثير .

وقيل : المراد بأمر ربك عذابهم في الدنيا .

واختاره : الواحدي، والرازي ، والقرطبي ، وأبو السعود ، وابنُ عاشور.

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال.

(وَمَا ظَلَمَهُمُ الله) لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه .

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك .

(فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) أي : أصابهم عقاب سيئات ما عملوا .

(وَحَاقَ بِهِمْ) أي : أحاط بهم من العذاب الأليم .

(مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أي: يَسْخَرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) .

الفوائد :

١. تهديد المشركين بالموت أو بعذاب الله .

٢. أسلوب التهديد اسلوب من أساليب الدعوة .

٣. أن من الملائكة من هم موكلون بقبض الأرواح .

٤. تمادي وطغيان المشركين على مر العصور بالعناد والتكذيب .

٥. أن الله لا يظلم الناس شيئاً .

٦. أن الله لا يعاقب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه .

٧. أن الذنوب والمعاصي هي سبب الهلاك .

كما قال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وقال تعالى (أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ) .

وقال تعالى (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ) .

وقال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) .

وقال تعالى (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وقال تعالى (فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥)) .

[النحل : ٣٥] .

==========

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ ...) أي : لو شاء الله ما عبدنا الأصنام ، لا نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها ، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء ، لا على سبيل الاعتقاد ، وغرضهم أن إشراكهم ، وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة ، واقع بمشيئة الله ، فالله إذا راض به وهو حق وصواب

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما قاله هؤلاء المشركون من كذب، وما نطقوا به من باطل.

أي: مثل هذا التكذيب والاستهزاء ، فعل من قبلهم من المجرمين ، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل ، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم ، بمحض اختيارهم ، بعد ان أنذرتهم رسلهم عذاب النار ، وغضب الجبار

واسم الإشارة (كذلك) يعود إلى إشراكهم وتحريمهم لما أحله الله- تعالى- أي: مثل ذلك الفعل الشنيع الذي فعله قومك معك يا محمد، فعل أشباههم السابقون مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله- تعالى- لهدايتهم، فلا تبتئس- أيها الرسول الكريم- مما فعله معك مشركو قومك. فإننا لولا وجودك فيهم، لأنزلنا بهم ما أنزلنا على سابقيهم من عذاب .

(**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**) أي : ما على الرسل الكرام الذين أرسلهم الله- تعالى- لإرشاد أقوامهم إلى الصراط المستقيم إلا الإبلاغ الواضح، المظهر لأحكام الله، المميز بين الحق والباطل، أما إجبار الناس على الدخول في الحق فليس من وظيفتهم.

قال تعالى (وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ، فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِساب) .

وقال تعالى (لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ) .

قال ابن تيمية: ويقولون: الاحتجاج بالقدر على الذنوب مما يُعلم بطلانه بضرورة العقل، فإن الظالم لغيره لو احتج بالقدر لاحتج ظالمه بالقدر أيضاً فإن كان القدر حجة لهذا فهو حجة لهذا وإلا فلا، ولو كان القدر حجة لفاعل الفواحش والمظالم لم يحسن أن يلوم أحدٌ أحداً، ولا يعاقب أحدٌ أحداً، فكان للإنسان أن يفعل في دم غيره وماله وأهله ما يشتهيه من المظالم والقبائح، ويحتج بأن ذلك مقدراً عليه.

وقد دل على فساد الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الطاعات ؛ الشرع والعقل ، فمن الأدلة الشرعية:

قول الله- تعالى - : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا ءَابَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ) .

فهؤلاء المشركون احتجوا بالقدر على شركهم ، ولو كان احتجاجهم مقبولاً صحيحاً ما أذاقهم الله بأسه . فمن احتج بالقدر على الذنوب والمعائب فيلزمه أن يصحح مذهب الكفار ، وينسب إلى الله الظلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً.

أن الله تعالى قال (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) ولو كان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي سائغاً لما كان هناك حاجة إلى إرسال الرسل، لأنهم إنما أرسلوا لأجل إقامة الحجة على الناس.

. أنه يترتب على الاحتجاج بالقدر على الذنوب تعطيل الشرائع والحساب والمعاد والثواب والعقاب.

لو كان القدر حجة لأهل المعاصي لاحتج به أهل النار ، إذا عاينوها ، وظنوا أنهم مواقعوها ، كذلك إذا دخلوها ، وبدأ توبيخهم وتقريعهم ، لكن الواقع أنهم لم يحتجوا به ، بل إنهم يقولون كما قال الله عز وجل عنهم : (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل) ويقولون : (ربنا غلبت علينا شقوتنا) .

وقالوا : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) و (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) ، إلى غير ذلك مما يقولون.

ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغاً لاحتجوا به ؛ فهم في بأمس الحاجة إلى ما ينقذهم من نار جهنم.

لو كان الاحتجاج بالقدر صحيحا لكان حجة لإبليس الذي قال : (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) ، ولتساوى فرعون عدو الله ، مع موسى كليم الله عليه السلام .

ومما يرد هذا القول ، ويبين فساده : أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه ، ولا تجد شخصا يترك ما يصلح أمور دنياه ويعمل بما يضره فيها بحجة القدر فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر ؟!

وإليك مثالاً يوضح ذلك : لو أن إنساناً أراد السفر إلى بلد ، وهذا البلد له طريقان ، أحدهما آمن مطمئن ، والآخر كله فوضى واضطراب ، وقتل ، وسلب ، فأيهما سيسلك ؟

لاشك أنه سيسلك الطريق الأول ، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار ؟

لو قبلنا هذا الاحتجاج الباطل لما كان هناك حاجـــــة للاستغفار ، والتوبة ، والدعاء ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لو كان القدر حجة على المعائب والذنوب لتعطلت مصالح الناس ، ولعمت الفوضى ، ولما كان هناك داع للحدود ، والتعزيرات ، والجزاءات ، لأن المسيء سيحتج بالقدر ، ولما احتجنا لوضع عقوبات للظلمة ، وقطاع الطريق ، ولا إلى فتح المحاكم ، ونصب القضاء ، بحجة أن كل ما وقع إنما وقع بقدر الله ، وهذا لا يقول به عاقل.

قال ﷺ (ما منكم من أحدٍ إلَّا قد كُتِب مَقعَدُه من النَّارِ أو من الجنَّةِ، فقال رجلٌ من القومِ: ألَا نتكِلُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: لا، اعمَلوا؛ فكُلٌّ مُيسَّرٌ، ثمَّ قرأ :فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى الآية) وفي لفظ لمسلم : كُلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِق له .

فأمر النبيُّ ﷺ بالعمَلِ، ونهى عن الاتِّكالِ على القَدَر.

فالسعيد من يستغفر عند المعايب ويصبر على المصائب .

الفوائد

١. أن الاحتجاج بالقدر على الكفر من علامات المشركين.

٢. بطلان الاحتجاج بالقدر على المعاصي.

٣. أنه يجب على المسلم عند المعصية التوبة والرجوع إلى الله.

٤. أن الله أقام الحجة على عباده.

٥. أن الله له الحجة البالغة والحكمة الكاملة في هداية من شاء وإضلال من شاء.

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧))

[النحل : ٣٦-٣٧] .

==========

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ) من الأمم .

(رَسُولًا) من الرسل .

والرسول : من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه .

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) وحده .

(وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) أي : اتركوا وابتعدوا عن كل معبود دون الله .

قال ابن عطية : و{ الطاغوت } في اللغة كل ما عُبد من دون الله من آدمي راض بذلك ، أو حجر أو خشب ،

قال القرطبي : أي اتركوا كلّ معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال.

قال ابن عاشور : والمعنى : أن الله بيّن للأمم على ألسنة الرسل عليهم السلام أنّه يأمرهم بعبادته واجتناب عبادة الأصنام ؛ فمن كل أمّة أقوام هداهم الله فصدّقوا وآمنوا ، ومنهم أقوام تمكّنت منهم الضلالة فهلكوا.

(فَمِنْهُمْ) من الأمم المذكورة .

(مَنْ هَدَى اللَّهُ) أي : وفقه لاتباع ما جاءت به الرسل .

(وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) أي : وجبت عليه ولزمته. لما سبق في علم الله من أنه يصير إلى الشقاوة. والمراد بالضلالة : الذهاب عن طريق الإسلام إلى الكفر.

وقد بين تعالى هذا المعنى في آيات أخر. كقوله (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) وقوله (فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير) .

(**فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**) بأبدانكم وقلوبكم معتبرين ومتعظين .

(**فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**) أي : كيف صار آخر أمرهم إلى العذاب والهلاك .

–قال الخازن : يعني فسيروا في الأرض معتبرين متفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل ، وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك ، ولتعرفوا أن العذاب نازل بكم إن أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم.

وقد أمر الله تعالى في آيات كثيرة بالسير في الأرض للاعتبار والاتعاظ:

قال تعالى (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ).

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ)

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ).

قال السعدي : قوله تعالى (فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين، بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، أفليس في هذا أعظم دليل وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل؟

قال ابن عاشور: قوله تعالى (فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) أي: المكذّبين برسل ربّهم وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقّق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على المستضعفين، فاستأصلهم الله أو لتطمئنّ نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدةَ عيان، فإنّ للعيان بديع معنى لأنّ بَلَغتهم أخبار المكذّبين، ومن المكذّبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرسّ، وكلّهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم.

قال بعض العلماء : السير في الأرض حسّي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التَّاريخ بحيث يحصل للنَّاظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لِعجز الإنسان وقصوره.

وإنَّما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب لأنّ في المخاطبين مَن كانوا أمّيين، ولأنّ المشاهدة تفيد من لم يقرأ علماً وتقوّي عِلْم من قرأ التَّاريخ أو قصّ عليه.

(**إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ**) ذكر جل وعلا في هذه الآية : أن حرص النَّبي ﷺ على إسلام قومه لا يهدي من سبق في علم الله أنه شقي.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر.

كقوله (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ) .

وقوله (وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً أولئك الذين لَمْ يُرِدِ الله أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وقوله (مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

وقوله (وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء) .

(**فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ**) قرئ بفتح الياء وكسر الدال يعني لا يهدي الله من أضله ، وقيل : معناه لا يهتدي من أضله الله وقرئ بضم الياء ، وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادي له .

(**وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**) مانعين يمنعونهم من العذاب .

فائدة : ١

أن هذه الآية فيها معنى : لا إله إلا الله .

لأنها مركبة من نفي وإثبات ، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات ، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص ، على الوجه الذي يشرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

وأوضح هذا المعنى كثيراً في القرآن عن طريق العموم والخصوص.

فمن النصوص الدالة عليه مع عمومها قاله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون) .

وقوله (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ) .

ومن النصوص الدالة عليه مع الخصوص في إفراد الأنبياء وأممهم :

قوله تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ) .

وقوله تعالى (وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ) .

وقوله (وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ) .

وقوله (وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُه) .

فائدة :

واعلم أن كل ما عبد من دون الله ، فهو طاغوت. ولا تنفع عبادة الله إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه.

كما بينه تعالى بقوله (فَمَنْ يَكْفُرْ بالطاغوت وَيْؤْمِن بالله فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى) .

وقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ) .

فائدة :

أن دعوة جميع الرسل توحيد الله واجتناب الشرك .

فائدة :

وجوب عبادة الله ، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك:

قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا).

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ).

– وأمر تعالى بعبادته حتى الموت فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).

– بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

وأمر جميع رسله .

كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ)، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم.

– وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولاً لهذا الغرض.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

– ووصف ملائكته بذلك.

فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له:

فقال تعالى (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً) وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً).

– وقد نعت الله نبيه بالعبودية في أكمل أحواله:

فقال في الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً).

وقال في الإيحاء (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى).

وقال في الدعوة (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

وقال في التحدي (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله تعالى.

فائدة :

وفي الآية لطيفتان:

الأولى : التعريض بالثناء على النبي صلى الله عليه وسلم في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذي شأنه أن يثير الحنَق في نفس من يلحقه الأذى ؛ ولكن نفس محمد صلى الله عليه وسلم مطهّرة من كل نقص ينشأ عن الأخلاق الحيوانية.

واللطيفة الثانية : الإيماء إلى أن غالب أمّة الدعوة المحمّدية سيكونون مهتدين وأن الضُلاّل منهم فئة قليلة ، وهم الذين لم يقدر الله هديهم في سابق علمه بما نشأ عن خلقه وقُدرته من الأسباب التي هيّأت لهم البقاء في الضلال.

والحرصُ : فرط الإرادة الملحّة في تحصيل المراد بالسّعي في أسبابه.

(وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)) .

[النحل : ٣٨-٤٠] .

==========

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ) أي : أقسموا وبالغوا في الأيمَان على أنه لا بعث ولا حساب بعد الموت، لأنهم يزعمون أن إعادة الميت إلى الحياة بعد أن صار ترابا وعظاما نخرة، أمر مستحيل.

وقد أكدوا زعمهم هذا بالقسم، للتدليل على أنهم متثبتون مما يقولونه. ومتيقنون من صحة ما يدعونه، من أنه لا يبعث الله من يموت.

قال القرطبي : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ..) هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت. ... ووجه العجب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات .

(**بَلَى**) رد عليهم وتكذيب لهم ، أي : بلى يبعثهم بعد الموت .

–قال الشنقيطي : ذكر جل و علا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار حلفوا جهد أيمانهم – أي اجتهدوا في الحلف –وغلظوا الأيمان على أن الله لا يبعث من يموت وكذبهم الله جل وعلا في ذلك بقوله (بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً) وكرر في آيات كثيرة هذا المعنى المذكور هنا من إنكارهم للبعث وتكذيبه لهم في ذلك .

كقوله (زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ) .

وقوله (كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .

وقوله (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحِيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

وقوله (فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

–قال الخازن : وتقرير الشبهة التي حصلت للمشركين في إنكار البعث بعد الموت أن الإنسان ليس هو، إلا هذه البنية المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلي امتنع عوده بعينه لأن الشيء إذا عدم فقد فني ، ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه ، فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم في إنكار البعث بعد الموت ، فذلك قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم { لا يبعث الله من يموت } فرد الله عليهم ذلك ، وكذبهم في قولهم فقال تعالى { بلى } يعني بلى يبعثهم بعد الموت لأن لفظة بلى إثبات لما بعد النفي.

والجواب عن شبهتهم أن الله سبحانه وتعالى ، خلق الإنسان وأوجده من العدم ولم يك شيئاً فالذي أوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على إيجاده بعد إعدامه لأن النشأة الثانية أهون من الأولى .

(**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا**) يعني أن الذي وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لا خلف فيه .

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرةِ والحكمة وغيرِها من صفات الكمالِ ، وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدمِ وقوفِهم على سرّ التكوين والغايةِ القصوى منه ، وعلى أن البعثَ مما يقتضيه الحكمةُ التي جرت عادتُه سبحانه بمراعاتها .

والمراد بأكثر الناس المشركون ، وهم يومئذٍ أكثر الناس.

عن أبي هُريرةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: (قال اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بَدَأني، وليس أوَّلُ الخَلقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه، وأمَّا شَتمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخَذَ اللهُ ولدًا، وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم أَلِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفُؤًا أحَد) .

وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ (قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وأما شتمه إيّاي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُؤاً أحد) .

(**لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ**) أي: سيَبعَثُ اللهُ الموتى؛ لِيُظهِرَ لهم في الآخرةِ الحقَّ الذي كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا– ومِن ذلك اختِلافُهم في ثُبوتِ البَعثِ– ويَحكُمَ بينهم، ويَجزيَ كلًّا بما عَمِلَه .

قال ابنُ عاشور: الله تعالى حكيمٌ لا تجري أفعالُه على خلافِ الحِكمةِ التامَّةِ، أي: جعلَ البعثَ؛ لِيُبَيِّن للنَّاسِ الشيءَ الذي يختلِفون فيه من الحَقِّ والباطل، فيظهر حَقُّ المحِقِّ، ويظهَر باطِلُ المبطِلِ في العقائِدِ ونحوها من أصولِ الدينِ وما ألحِقَ بها. وشَمِل قولُه: يَخْتَلِفُونَ كُلَّ معاني المحاسَبةِ على الحقوقِ؛ لأنَّ تمييزَ الحقوقِ مِن المظالِمِ كُلُّه محلُّ اختلافِ النَّاسِ وتنازُعِهم .

(**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) بالبعث .

(**أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ**) يعني في قولهم لا بعث بعد الموت.

قال أبو السعود : في كل ما يقولون لا سيما في قولهم : لا يبعث الله من يموت .

–قال ابن عاشور : وفي حصول علمهم بذلك يوم البعث مثارٌ للندامة والتحسّر على ما فرط منهم من إنكاره.

فالآية الكريمة قد بينت حكمتين لبعث الناس للحساب يوم القيامة :

الأولى : إظهار ما اختلفوا فيه في شأن البعث وغيره مما جاءتهم به الرسل.

والثانية: إظهار كذب الكافرين الذين أنكروا البعث واستهزءوا بمن دعاهم إلى الإيمان به .

الفوائد :

١. أن الكفار ينكرون البعث .

٢. كفر من أنكر البعث .

٣. وجوب الإيمان بالبعث .

٤. من حكم البعث بيان كذب من ينكره .

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)) .

[النحل : ٤٠] .

==========

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: "كن"، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء .

كما قال (وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) .

وقال (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) .

وقال في هذه الآية الكريمة (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) أي: أن يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن : أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه هو الواحد القهار العظيم، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

–قال الشنقيطي : ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه لا يتعاصى على قدرته شيء ، وإذ يقول للشيء "كن " فيكون بلا تأخير ، وذلك أن الكفار لما (وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ) ، ورد الله عليهم كذبهم بقوله : (بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً) بين أنه قادر على كل شيء ، وأنه كلما قال لشيء "كن "كان ، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر.

كقوله في الرد على من قال (من يُحْيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ) (إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون) .

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله : "كن " بل إذا قال للشيء "ككن " مرة واحدة ،كان في أسرع من لمح البصر – في قوله (وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر) .

ونظيره قوله (وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر) .

وقال تعالى (إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) .

وقال (مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) .

وقد ذكر الله تعالى قدرته على البعث في لآخر سورة يس :

قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

الفوائد :

١. الاستدلال بعموم قدرته عز وجل وتمامها على قدرته على إحياء الموتى.

٢. بيان قدرة الله سبحانه وتعالى التامة التي لا يضاهيها، ولا يقاربها قدرة .

٣. عظمة الله .

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)) .

[النحل : ٤١-٤٢]

==========

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ) يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه.

قال ابن جرير: يقول تعالى: والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم عداوة لهم في الله على كفرهم إلى آخرين غيرهم (مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) يقول: من بعد ما نيل منهم في أنفسهم بالمكاره في ذات الله (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَة) يقول: لنسكننهم في الدنيا مسكنًا يرضونه صالحاً. وقوله: (وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) يقول: ولثواب الله إياهم على هجرتهم فيه في الآخرة أكبر؛ لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التي يدوم نعيمها ولا يبيد.

وقال السعدي: يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ) أي: في سبيله، وابتغاء مرضاته (مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن فذكر لهم ثوابين، ثوابًا عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء الذي رأوه عياناً بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة، (وَلأَجْرُ الآخِرَةِ) الذي وعدهم الله على لسان رسوله خير، و(أَكْبَرُ) من أجر الدنيا ... (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وجاهد في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

والهجرة ، وهي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله .

- وهي ٣ أنواع:

الأول: هجرة ترك المعاصي، كما قال ﷺ (والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) رواه البخاري.

والثاني: مفارقة الدار والتحول عنها، وهذا له صور أعظمها مفارقة بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

والثالث: وهي أعظمها؛ هجرة القلوب: وهي الهجرة العظيمة، وهي إلى الله بالإخلاص وإلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالمتابعة.

(مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) أي : من بعد ما نيل منهم في أنفسهم بالمكاره في ذات الله .

–قال ابن عطية : لما ذكر الله تعالى كفار مكة الذين أقسموا أن الله لا يبعث من يموت ، ورد على قولهم ، ذكر مؤمني مكة المعاصرين لهم ، وهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح في سبب الآية ، لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية .

(**لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**) أي : لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب .

وعن عمر أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة أكبر.

وقيل : لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم ، وهذا قول الحسن والشعبي وقتادة ، والتقدير : لنبوئنهم في الدنيا داراً حسنة أو بلدة حسنة يعني المدينة.

–قال القرطبي : في الحسنة ستة أقوال : الأوّل نزول المدينة ؛ قاله ابن عباس والحسن والشَّعْبِيّ وقَتادة.

الثاني الرزق الحسن ؛ قاله مجاهد.

الثالث النصر على عدوّهم ؛ قاله الضحاك.

الرابع إنه لسان صدق ؛ حكاه ابن جُريج.

الخامس ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات.

السادس ما بقي لهم في الدنيا من الثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف.

وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله ، والحمد لله.

–قال الشوكاني : قوله تعالى (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَة) اختلف في معنى هذا على أقوال.

فقيل : المراد : نزولهم المدينة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والشعبي ، وقتادة.

وقيل : المراد : الرزق الحسن ، قاله مجاهد.

وقيل : النصر على عدّوهم قاله الضحاك.

وقيل : ما استولوا عليه من فتوح البلاد ، وصار لهم فيها من الولايات.

وقيل : ما بقي لهم فيها من الثناء ، وصار لأولادهم من الشرف.

ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور.

–قال ابن عاشور : وهذا الجزاء يجبر كل ما اشتملت عليه المهاجرة من الأضرار التي لقيها المهاجرون من مفارقة ديارهم وأهليهم وأموالهم ، وما لاقَوْه من الأذى الذي ألجأهم إلى المهاجرة من تعذيب واستهزاء ومَذلّة وفتنة ، فالحسنة تشتمل على تعويضهم دياراً خيراً من ديارهم ، ووطناً خيراً من وطنهم ، وهو المدينة ، وأموالاً خيراً من أموالهم ، وهي ما نالوه من المغانم ومن الخراج.

روي أن عُمر رضي الله عنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له : "هذا ما وعدك ربّك في الدنيا ، وما ذخر لك في الآخرة أكبر" ؛ وغلبة لأعدائهم في الفتوح وأهمّها فتح مكّة ، وأمناً في حياتهم بما نالوه من السلطان ، قال تعالى (وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا) .

قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجرة الحبشة الذي اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيرًا منها في الدنيا، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله بما هو خير له منه وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقـاب العباد، فصـاروا أمراء حكاما، وكل منهم للمتقين إماماً .

(**وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**) أي: مما أعطيناهم في الدنيا .

(**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**) الضمير إلى من يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى الكفار ، أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم.

والثاني : أنه راجع إلى المهاجرين ، أي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

(**الَّذِينَ صَبَرُوا**) على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله ، وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله .

(**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**) لا على غيره .

الفوائد :

١-فضل الهجرة اذا كانت لله .

وقد قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً).

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين: أولهما: مراغماً كثيراً، وثانيهما: سعة.

والمراد بالأمر الأول (مراغما)

قال الرازي: وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية، وذلك لأن من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية فإذا استقام أمره في تلك البلدة الأجنبية، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بلدته خجلوا من سوء معاملتهم معه، ورغمت أنوفهم بسبب ذلك، وحمل اللفظ على هذا أقرب من حمله على ما قالوه، والله أعلم.

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق.

وقد يدخل في "السعة"، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهمّ والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني "السعة"،

ثانياً: أن الله يخلفه.

قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً).

ثالثاً: ينالون رحمة الله.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم).

٢- فضل المهاجرين وفضل الهجرة .

٣- أن الهجرة إذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع ، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر .

قال ﷺ (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

(فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله) نية وقصداً.(فهجرته إلى الله ورسوله) ثواباً وأجراً.(ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا) حقيقتها ما على الأرض من الهواء والجو مما قبل قيام الساعة.(أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا) نص عليه لشدة الافتتان بها وإلا فهي تدخل ضمن (دنيا يصيبها).(فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) أي: من حيث أنه لا ثواب له فيها ولا أجر، وقد يكون عليه فيها وزر.

والهجرة هنا: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

٤- وجوب الإخلاص، وأن الإنسان ليس له من عمله إلا بقدر نيته، وأن الأجور في الأعمال الصالحة تعظم بعظيم ما في قلب العبد من سلامة القصد وصحة النية.

٥-وعد من الله لمن هاجر في سبيل الله لينزلنه الله منزلاً حسناً في الدنيا ويعوضه الله خيراً من منزله .

٦-أن ما لهم في الآخرة من الأجر أعظم وأكبر .

٧-فضل عاقبة الصبر .

٨- فضل التوكل على الله .

٩-الصَّبرُ والتوكُّلُ مِلاكُ الأمورِ كُلِّها، فما فات أحدًا شَيءٌ مِن الخيرِ إلَّا لعَدمِ صَبرِه وبَذْلِ جُهدِه فيما أُريدَ منه، أو لعَدَمِ توَكُّلِه واعتمادِه على الله .

١٠-من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، فإنَّهم تركوا مساكِنَهم وأموالَهم، فعوَّضَهم اللهُ خيرًا منها في الدُّنيا، فإنَّ من ترك شيئًا لله عوَّضه الله بما هو خيرٌ له منه، وكذلك وقَعَ؛ فإنَّهم مكَّن اللهُ لهم في البلادِ، وحكَّمَهم على رقابِ العِبادِ، فصاروا أمراءَ حُكَّامًا، وكلٌّ منهم للمُتَّقين إمامًا .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)) .

[النحل : ٤٣-٤٤] .

==========

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) أي : وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية، إلا بشرا نوحي إليهم كما أوحينا إليك، قال المفسرون : أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلا بعث إلينا مَلَكا!! فنزلت .

-قال ابن عطية : هذه الآية رد على كفار قريش الذين استبعدوا أن يكون البشر رسولاً من الله تعالى ، فأعلمهم الله تعالى مخاطباً لمحمد ﷺ أنه لم يرسل إلى الأمم (إلا رجالاً) ولم يرسل ملكاً ولا غير ذلك .

(نُوحِي إِلَيْهِمْ) نُوحي إليهم الشَّرائِعَ والأحكامَ .

كما قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) .

وقال سُبحانه (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) .

الوحي من خصائص الأنبياء ، وللأنبياء خصائص :

أولاً : تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (مَا كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعاً، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا. قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ثانياً : يدفنون حيث يموتون .

قال ﷺ (لم يدفن نبي إلا حيث قبض) . رواه أحمد

ثالثاً : يخبرون عند موتهم .

قال ﷺ (ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة) . متفق عليه

رابعاً : أحياء في قبورهم .

وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : (رأيت موسى يصلي في قبره) .

خامساً : لا تأكل الأرض أجسادهم .

قال ﷺ (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) . رواه أبو داود

سادساً : الوحي .

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

(**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**) أي : أهل الكتاب .

قال الزجاج : فاسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معاني كتب الله تعالى ، فإنهم يعرفون أن الأنبياء كلهم بشر .

–قال ابن كثير : قَالَ الضَّحَّاكُ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا، أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ وَقَالُوا: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا، فأنزل (أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) وَقَالَ (وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) يَعْنِي أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أَمْ مَلَائِكَةً؟ فَإِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً أَنْكَرْتُمْ وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم .

رسولاً .

وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الكريمة أخبرت بأن الرُّسُلَ الْمَاضِينَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا بَشَرًا كَمَا هُوَ بَشَرٌ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا وما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِين) .

وَقَالَ (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ) .

وَقَالَ تَعَالَى (قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ) .

ثُمَّ أَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَكَّ فِي كَوْنِ الرُّسُلِ كَانُوا بَشَرًا إِلَى سُؤَالِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَلَفُوا هَلْ كَانَ أَنْبِيَاؤُهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً .

–قال ابن عطية : و(أهل الذكر) هنا اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن ، وقال الأعمش وسفيان بن عيينة : المراد من أسلم منهم ، وقال ابن جبير وابن زيد : { أهل الذكر } أهل القرآن.

وهذان القولان فيهما ضعف ، لأنه لا حجة على الكفار في إخبار المؤمنين بما ذكر ، لأنهم يكذبون هذه الصنائف ، وقال الزجاج (أهل الذكر) هنا أحبار اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، وهم في هذه النازلة خاصة إنما يخبرون بأن الرسل من البشر ، وإخبارهم حجة على هؤلاء .

–قال الخازن : وإنما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لأن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم ، وقد أرسل الله إليهم رسلاً منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل ، وكانوا بشراً مثلهم فإذا سألوهم فلا بد ، وأن يخبروهم بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً ، فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم .

–قال الثعالبي : و(أَهْلَ الذكر) هنا : أحبارِ اليهودِ والنصارَى ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وهو أظهر الأقوال .

استحباب السؤال :

قال تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}.

وقال ﷺ: (نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين).

ولما سئل ابن عباس، كيف نلت العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول، وجسم غير ملول.

وقيل: السؤال نصف العلم.

وقال الزهري: العلم خزانة، مفتاحها المسألة ".

وسئل الأصمعي: بما نلت ما نلت؟ قال: بكثرة سؤالي، وتلقفي الحكمة الشرود.

وهناك أمثلة كثيرة تدل على حرص الصحابة على السؤال الذي ينتفعون به:

فقد سأله صحابي: أي الإسلام خير؟

وسأله آخر: أي العمل أفضل؟

وسأله آخر: أي العمل أحب إلى الله؟

وسأله آخر: أي الصلاة أفضل؟

وقال له آخر: علمني دعاء أدعو به في صلاتي؟

وكانوا يسألون ليستفيدوا ويطبقوا ويعملوا، بخلاف كثير من الناس في هذه الأزمان.

(**بِالْبَيِّنَاتِ**) الحجج الواضحات .

(**وَالزُّبُرِ**) بالكتب .

والمعنى : أرسَلْنا الأنبياءَ السَّابِقينَ بالحُجَجِ والكُتُبِ .

(**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)المراد بالذكر في هذه الآية : القرآن. كقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي ﷺ :

إحداهما : أن يبين للناس ما نزل إليهم في هذا الكتاب من الأوامر والناهي ، والوعد والوعيد ، ونحو ذلك.

وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضاً.

كقوله (وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ) .

وقوله (إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس) .

الحكمة الثانية : هي التفكر في آياته والاتعاظ بها. كما قال هنا (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضاً.

كقوله (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب) .

وقوله (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً) .

وقوله (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ) .

الفوائد :

١. دلت الآية على أنه تعالى ما أرسل أحداً من النساء ، ودلت أيضاً على أنه ما أرسل ملكاً .
٢. كثرة الرسل .
٣. إثبات رسالته ﷺ .
٤. من خصائص الأنبياء الوحي .
٥. أن الله تعالى يرسل الرسل إقامة للحجة .
٦. استحباب سؤال أهل العلم .
٧. أن الله أرسل الرسل بالكتب والحجج الواضحات .
٨. أن من أسماء القرآن الذكر .
٩. أن القرآن منزل غير مخلوق .
١٠. أن الله أنزل القرآن ليبين للناس الحق والباطل .
١١. فضل التفكر .

تنبيه :

ذهب بعض العلماء كأبي الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم إلى وجود نبيَّات من النساء ! ومنهن مريم بنت عمران .

ودليلهم ما جاء من آيات فيها بيان وحي الله تعالى لأم موسى – مثلاً – ، وما جاء من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام ، وأيضاً باصطفاء الله تعالى لها على نساء العالَمين.

وهذا الذي قالوه لا يظهر رجحانه.

قال الشيخ عمر الأشقر – حفظه الله: –

وهذا الذي ذكروه لا ينهض لإثبات نبوة النساء ، والرد عليهم من وجوه:

الأول : أنّا لا نسلِّم لهم أن النبيَّ غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس، والذي اخترناه : أن لا فرق بين النبيّ والرسول في هذا، وأنَّ الفرق واقع في كون النبي مرسل بتشريع رسول سابق.

وإذا كان الأمر كذلك : فالمحذورات التي قيلت في إرسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء ، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحقّ النبوة.

الثاني : قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة – أم موسى وآسية – إنّما وقع مناماً ، فقد علمنا أنّ من الوحي ما يكون مناماً ، وهذا يقع لغير الأنبياء.

الثالث : لا نسلِّم لهم قولهم : إن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي ، ففي الحديث أن الله أرسل ملكاً لرجل يزور أخاً له في الله في قرية أخرى ، فسأله عن سبب زيارته له ، فلمّا أخبره أنه يحبّه في الله ، أعلمه أنَّ الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبّه ، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول ﷺ والصحابة يشاهدونه ويسمعونه.

الرابع : لا حجّة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم ؛ فالله قد صرح بأنّه اصطفى غير الأنبياء (ثمُّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذين اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ) واصطفى آلَ إبراهيم وآلَ عمران على العالَمين ، ومِن آلِهما من ليس بنبيّ جزماً (إِنَّ الله اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ).

الخامس : لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به ، النبوة ؛ لأنّه يطلَق لتمام الشيء وتناهيه في بابه ، فالمراد : بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء ، وعلى ذلك فالكمال هنا غير كمال الأنبياء.

السادس : ورد في بعض الأحاديث النصّ على أن خديجة من الكاملات ، وهذا يبيّن أن الكمال هنا ليس كمال النبوة.

السابع: ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلاّ ما كان من مريم ابنة عمران ، وهذا يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية ؛ لأنّ فاطمة ليست بنبيَّة جزماً ، وقد نصَّ الحديث على أنها أفضل من غيرها ، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتان لكانتا أفضل من فاطمة.

الثامن : وصف مريم بأنها صِدّيقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها ، قال تعالى (مَّا المسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَت مِن قَبْلِه الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ) فلو كان هناك وصف أعلى من ذلك لوصفها به ، ولم يأت في نصّ قرآني ولا في حديث نبويّ صحيح إخبار بنبوة واحدة من النساء.

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)) .

[النحل : ٤٥-٤٧] .

==========

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ) أي :هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحتالوا لقتله في دار الندوة، هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون ؟

قال ابن عطية : هذه الآية لأهل مكة ، وهم المراد ب { الذين } في قول الأكثر ، وقال مجاهد : المراد نمرود بن كنعان ، والأول أظهر .

وقال ابنُ جُزيّ (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ) يعني: كُفَّارَ قُرَيشٍ عند جمهورِ المفَسِّرين .

وقال الآلوسي (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ) هم عند أكثر المفسرين، مشركو مكة، الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وراموا صد أصحابه عن الإيمان ،وقيل: هم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء ... والمعول عليه ما عليه أكثر المفسرين .

(أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) أي : هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون ؟

والخسف: التغييب في الأرض، بحيث يصير المخسوف به في باطنها ، يقال: خسف الله بفلان الأرض، إذا أهلكه بتغييبه فيها ومنه قوله تعالى (فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْض) .

وقال تعالى (أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِي السمآء) .

وقوله (أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً) .

وقوله (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون) .

(**أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**) أي : يأتيهم العذاب بغتةً في حال آمنهم واستقرارهم، من حيث لا يخطر ببالهم ومن جهةٍ لا يعلمون بها .

قال بعض العلماء : أي يأتيهم عذاب الله وهم في غفلتهم ولهوهم، أو من مأمنهم حيث يبتغون الأمن والسلام، أو من الجهة التي يرجون منها الخير والبركة. كما فُعل بقوم لوط وغيرهم من الأمم المهلكة.

ولقد حدث لهم ذلك يوم بدر، فقد أهلكوا مع كثرتهم عددًا وعتادًا وهم يأملون النصر والغنيمة .

(**أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ**) أي : يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء وغيرها من الأشغال الملهية .

أي : في قدرتنا أن نخسف بهم الأرض، وأن نرسل عليهم العذاب من حيث لا يشعرون، وفي قدرتنا كذلك أن نهلكهم وهم يتحركون في مناكب الأرض خلال سفرهم أو إقامتهم، فإنهم في جميع الأحوال لا يعجزنا أخذهم، ولا مهرب لهم مما نريده بهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ. أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ. أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ، فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُون) .

قال الشوكاني : ذكر المفسرون فيه وجوهاً :

فقيل : المراد : في أسفارهم ومتاجرهم ، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر ، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض ، وبعدهم عن الأوطان.

وقيل : المراد : في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجود الحيل ، فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم.

وقيل : في حال تقلبهم في الليل على فرشهم.

وقيل : في حال إقبالهم وإدبارهم ، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار.

والقلب بالمعنى الأوّل مأخوذ من قوله (لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِى البلاد) .

وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله (وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور) .

–قال ابن عاشور : والتّقلّب : السعي في شؤون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر ومحادثة ومزاحمة.

(**فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ**) أَيْ : لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانُوا عَلَيْه .

(**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ**) أي : يأخذهم وهم في حالة خوف وتوقع لنزول العذاب بهم، كما نزل بالذين من قبلهم.

هذا القول الأول في معناها .

وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله: وقوله (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ) أي : أو يأخذهم الله تعالى في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالات الأخذ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد .

قال بعض العلماء : التخوف تفعل من الخوف ، يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولاً بل يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعده ، وتلك الإخافة هو أنه تعالى يهلك فرقة فتخاف التي تليها فيكون هذا أخذاً ورد عليهم بعد أن يمر بهم قبل ذلك زماناً طويلاً في الخوف والوحشة.

وقيل : أو يأخذهم وهم في حالة تنقص في أنفسهم وأموالهم وأولادهم حتى يهلكوا، فيكون هلاكهم قد سبقه الفقر والقحط والمرض، وفي ذلك ما فيه من عذاب لهم، وحسرة عليهم .

وممَّن اختار هذا المعنى للتخوُّف: ابنُ جرير ، والواحدي ، والبقاعي ، ونسبه الواحدي إلى عامَّة المفسِّرين.

–قال الشوكاني : قوله تعالى (أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ) أي : حال تخوّف وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب ، حذرين منه غير غافلين عنه ، فهو خلاف ما تقدم من قوله (أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ) .

وقيل : معنى (على تَخَوُّفٍ) على تنقص.

قال ابن الأعرابي : أي على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم.

قال الواحدي : قال عامة المفسرين : {على تخوّف} قال : تنقص ، إما بقتل أو بموت ، يعني : بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الأول فالأوّل حتى يأتي الأخذ على جميعهم. (فتح القدير) .

–**قال ابن عاشور** : فللآية معنيان : إما أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة توقّع نزول العذاب بأن يريهم مقدماته مثل الرعد قبل الصّواعق ، وإما أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة تنقّص من قبل أن يتنقّصهم قبل الأخذ بأن يكثر فيهم الموتان والفقر والقحط.

(**فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**) لبيان فضله– سبحانه– على عباده، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه .

الفوائد :

١. تهديد للكفار الذين يمكرون السيئات .
٢. أن عذاب الله يتنوع على الكفار حسب حكمته تعالى .
٣. أن من عذاب الله بالكفار الخسف .
٤. قدرة الله العظيمة .
٥. التحذير من الأمن من مكر الله .
٦. أن عذاب الله قد يأتي من حيث لا يشعرون .
٧. إثبات اسمين من أسماء الله : الرؤوف والرحيم .

(وَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)).
[النحل : ٤٨–٥٠] .

==========

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ)

(**أَوَلَمْ يَرَوْا**)بعيون الأبصار متفكرين بالبصائر .

(**يتفيأ**) من التفيؤ، بمعنى الرجوع. يقال: فاء فلان يفيء إذا رجع وفاء الظل فيئا، إذا عاد بعد إزالة ضوء الشمس له. وتفيؤ الظلال: تنقلها من جهة إلى أخرى بعد شروق الشمس، وبعد زوالها.

والظلال: جمع ظل، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور.

و «داخرون» من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع، يقال: دخر فلان يدخر دخورا، ودخر– بزنة فرح– يدخر دخرا، إذا انقاد لغيره وذل له.

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون الذين مكروا السيئات، ولم يروا ما خلق الله تعالى من الأشياء ذوات الظلال- كالجبال والأشجار وغيرها- وهي تتنقل ظلالها. من جانب إلى جانب، ومن جهة إلى جهة، باختلاف الأوقات وهي في كل الأحوال والأوقات منقادة لأمر الله جارية على ما أراده لها من امتداد وتقلص وغير ذلك، خاضعة كل الخضوع لما سخرت له .

(**وَهُمْ دَاخِرُونَ**) أي : خاضعون صاغرون فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتدبيره فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون؟

-قال ابن كثير : يخبر- تعالى- عن عظمته وجلاله، الذي خضع له كل شيء ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جمادها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال- أي بكرة وعشيا-، فإنه ساجد بظله لله تعالى .

والاستفهام في قوله- تعالى- أَوَلَمْ يَرَوْا.. للإنكار والتوبيخ، والرؤية بصرية.

أي: قد رأوا كل ذلك، ولكنهم لم ينتفعوا بما رأوا، ولم يتعظوا بما شاهدوا

(**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ**) قال العلماء : السجود على نوعين سجود طاعة ، وعبادة كسجود المسلم لله ، وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله : ولله يسجد ما في السموات ، وما في الأرض من دابة يحتمل النوعين لأن سجود كل شيء بحسبه فسجود المسلمين ، والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع .

وَالْمَلَائِكَةُ) تسجد لله .

وخصهم بالذكر :

لفضلهم وشرفهم .

وكثرة عبادتهم .

وتعريضاً بالمشركين الذين عبدوا الملائكة. أو قالوا هم بنات الله .

(**وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**) أي: عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم كما قال تعالى (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُون) .

(**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**) أَيْ : يَسْجُدُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُه .

(**وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**) أي: ويَفعَلُ الملائِكةُ ما يأمُرُهم اللهُ بفِعلِه، ولا يَعصُونه .

كما قال (إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون).

قال تعالى (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون).

وقال تعالى (وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ).

وقال تعالى (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون).

قال رسول الله ﷺ (ألا تصُفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها؟ قالوا: كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يُتمُّون الصف الأول فالأول، ويتراصُّون في الصف) رواه مسلم.

وقال رسول الله ﷺ في ليلة المعراج (... ثم رُفِع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم) رواه مسلم.

وقال ﷺ (... أطت السماء وحق لها ما فيها موضع شبر إلا وملك ساجد ...) .

الفوائد :

١. إثبات الملائكة.

٢. عبادة الملائكة لربها وكثرة طاعتها له.

٣. خضوع الملائكة لله تعالى.

٤. ذم من يتكبر عن طاعة الله.

(وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١)) .

[النحل : ٥١] .

==========

(وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ) أي : لا تعبدوا إلهين إثنين ، فإن الإله الحق لا يتعدد .

نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلهاً آخر معه ، وأن المعبود المستحق لأن يعبد وحده واحد ، ثم أمرهم أن يرهبوه أي يخافوه وحده. لأنه هو الذي بيده الضر والنفع ، لا نافع ولا ضار سواه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة.

كقوله (ففروا إِلَى الله إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ الله إلها آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) .

وقوله (الذي جَعَلَ مَعَ الله إلها آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي العذاب الشديد) .

وقوله (لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً) .

وقوله (وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ فتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً) .

وبين جل علا في مواضع أخر : استحالة تعدد آلهة عقلاً.

كقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا) وقوله (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الغيب والشهادة فتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقوله (قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلى ذِي العرش سَبِيلاً) .

(إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ) أي : إلهكم إله واحد ، لا شريك له ولا نظير.

(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) أي : خافون دون سوأي .

الفوائد :

١. وجوب إفراد الله بالعبادة .

٢. تحريم الشرك مع الله .

٣. وجوب الخوف من الله .

(وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)) .

[النحل : ٥٢] .

==========

(وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي: كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً.

قال ابن جرير: أي أنه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد، وخالق جميعه دون آلهة ومعبود.

وقال ابن كثير: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه.

وقال أبو بكر الجزائري: خلقاً وملكاً وتصرفاً.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم:

قال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

وقال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً).

وقال تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

وهذه الجملة تؤيد تفرده سبحانه بالألوهية، وذلك من جانبين:

الأول: حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله، وليس للعبد أن يعبد غير مالكه، أو يُشرِك غيره معه في العبادة، وقد نهاه عن ذلك.

الثاني: وحيث إن الجميع عبيد له، فكيف يُعبد مملوك – كائناً من كان – ويُترك المالك، أو يُشرَك مملوك في العبادة مع المالك، وقد نهى عن ذلك.

والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد :

الفائدة الأولى: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء .

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

ويدل لذلك أيضاً ما بيّنه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول (إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب).

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به، لأنك ملكه.

الفائدة الثالثة: أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ).

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم.

قال الخازن : (وله ما في السموات والأرض) لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح أن إله العالم لا شريك له في الإلهية ، وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيداً له وفي ملكه وتصرفه ، وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله ما في السموات والأرض يعني ، عبيداً وملكاً .

(**وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا**) الدين هنا : الطاعة. ومنه سميت أوامر الله ونواهيه ديناً.

كقول (إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإسلام) وقوله (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً) وقوله (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) .

والمراد بالدين في الآيات : طاعة الله بامتثال جميع الأوامر ، واجتناب جميع النواهي.

ومعنى واصباً : أي دائماً .

وهذا القول مروي عن ابن عباس والحسن والضحاك .

ورجحه القرطبي ، والبغوي ، وابن عطية ، والشنقيطي ، والألوسي ، والشوكاني .

لأن الأصل في اللغة معنى (وَصَبَ) الدوام .

قال الخليل بن أحمد : والوصوب ديمومة الشيء .

وورد لفظ واصب بمعنى دائم في القرآن الكريم قال تعالى (ولهم عذاب واصب) .

قال الرازي : الدين ههنا الطاعة ، والواصب الدائم.

قال ابن قتيبة : ليس من أحد يدان له ويطاع ، إلا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو بالموت إلا الحق سبحانه ، فإن طاعته واجبة أبداً.

قال البقاعي : (واصباً) أي دائماً ثابتاً عاماً لا كالملوك الذين تنقطع ممالكهم مع خصوصها ، والمعبودات التي تنقطع عبادتها في وقت من الأوقات فتصير كاسدة بعد أن كانت رابحة وإن طال المدى ، مع خصوصها بناس دون غيرهم ، ولا يخلو يوم من الأيام لملك غيره من جري أمور على غير مراده وإن عظم سلطانه ، وعلا شأنه ، وكثرت أعوانه ، فكيف يتصور من له أدنى بصر أن يكون غيره إلهاً

وقال الشنقيطي : قوله (واصباً) أي دائماً. أي له جلَّ وعلا : الطاعة والذل والخضوع دائماً. لأنه لا يضعف سلطانه ، ولا يعزل عن سلطانه ، ولا يموت ولا يغلب ، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا. فإن الواحد منهم يكون مطاعاً له السلطنة والحكم ، والناس يخافونه ويطعمون فيما عنده برهة من الزمن ، ثم يعزل أو يموت ، أو يذل بعد عز ، ويتضع بعد رفعة. فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد. فسبحان من لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل ، وكبره تكبيراً.

وقيل : واصباً واجباً .

ويكون المعنى وله الدين ثابت واجب على كل مكلف .

ورجحه الزمخشري ، وابن جزي .

وقيل : واصباً خالصاً .

ويكون المعنى وله الدين خالصاً له سبحانه .

(**أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ**) أنكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة على من يتقي غيره ، لأنه لا ينبغي ان يتقى إلا من بيده النفع كله والضر كله ، لأن غيره لا يستطيع أن ينفعك بشيء لم يرده الله لك ، ولا يستطيع أن يضرك بشيء لم يكتبه الله عليك.

الفوائد :

١. عموم ملك الله لكل شيء .
٢. وجوب عبادة الله ، لأن كل شيء ملكه .
٣. الرضا بقضاء الله وقدره ، لأننا عبيده وتحت قهره .
٤. وجوب طاعة الله دائماً .
٥. أن من يملك كل شيء هو الذي يستحق العبادة .

(**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)**) .

[النحل : ٥٣-٥٥] .

=========

(**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**) أي: كلُّ ما لديكم- أيُّها النَّاسُ- من نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، فهو مِن الله وَحْدَه، لا مِن غَيرِه .

(**ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ**) الأسقام والأمراض والحاجة .

(**فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**) أي : ترفعون أصواتكم بالاستغاثة ، وتتضرعون إليه بالدعاء .

وقد أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر.

كقوله (وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ) .

وقوله (وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ) .

وقوله (مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ) .

وقوله (قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا) .

وقوله (قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) إلى غير ذلك من الآيات.

(**ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**) بين تعالى أن عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر في أن لا يفزع إلا إلى الله تعالى ، وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره ، وهذا جهل وضلال ، لأنه لما شهدت فطرته الأصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع إلا إلى الواحد ، ولا مستغاث إلا الواحد فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد ، فأما أنه عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث إلا الله تعالى ، وعند زوال البلاء يثبت الأضداد والشركاء ، فهذا جهل عظيم وضلال كامل.

ونظير هذه الآية قوله تعالى (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) .

قال الشنقيطي : بين تعالى في هذه الآية الكريمة : ان بني آدم إذا مسهم الضر دعوا الله وحده مخلصين له الدين فإذا كشف عنهم الضر ، وأزال عنهم الشدة : إذا فريق منهم وهم الكفار يرجعون في أسرع وقت إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي.

وقد كرر جل وعلا هذا المعنى في القرآن.

كقوله في " يونس " (حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين) إلى قوله (إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق) .

وقوله " في الإسراء " (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً) .

وقوله في آخر " العنكبوت " (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) وقوله في " الأنعام " (قُلِ الله يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

(**لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ**) قيل : إن هذه اللام لام كي ويكون المعنى على هذا أنهم إنما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر عنهم .

ورجحه القرطبي ، ووافقه الشوكاني .

وهو قول الزجاج ، والزمخشري ، وابن عاشور .

وقيل : إنها لام العاقبة والمعنى عاقبة أمرهم ، هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء .

وقال بهذا : البغوي ، والآلوسي ، وابن كثير .

وقيل : إنها لام الأمر .

واختاره ابن جرير .

ويكون المعنى : اكفروا بما آتيناكم وتمتعوا بما أنعمنا عليكم فسوف تعلمون جزاؤكم .

(**فَتَمَتَّعُواْ**) لفظه أمر والمراد منه التهديد والوعيد ، يعني : فعيشوا في اللذة التي أنتم فيها إلى المدة التي ضربها الله لكم .

قال الشنقيطي : صيغة الأمر في قوله (فَتَمَتَّعُواْ) للتهديد. وقد تقرر في " فن المعاني ، في مبحث الإنشاء "، وفي " فن الأصول، في مبحث الأمر " : أن من المعاني التي تأتي لها صيغة إفعل التهديد.

كقوله (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار) وقوله (قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار) ، وقوله (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وقوله (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ) وقوله (كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ) وقوله (فَذَرْهُمْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

(**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) يعني عاقبة أمركم إلى ماذا تصير ، وهو نزول العذاب بكم.

الفوائد :

١. أن كل النعم من الله .
٢. وجوب شكر الله على نعمه .
٣. أن المنعم هو الذي يستحق العبادة .
٤. أن الكفار وقت الشدة يرجعون إلى الله لعلمهم بأنه النافع الضار .
٥. أن الكفار إذا كشف الله الضر عنهم رجعوا إلى كفرهم .
٦. شدة عناد وعتو الكفار .
٧. أن الذي يكشف الضر هو الله وحده .
٨. لا أحد يستطيع كشف الضر إلا الله .
٩. ينبغي على المسلم إذا كشف الله ضره أن يشكر الله ويعلم أن ذلك من فضل الله .
١٠. تهديد الكفار .
١١. أن الكفار يتمتعون بالدنيا كالبهائم وستكون عاقبتهم العذاب .
١٢. تهديد لكل مشرك ، وأن تمتعه بالدنيا قليل ثم يرجعون إلى الله فيعذبهم .

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)) .

[النحل : ٥٦] .

==========

(**وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ**) معطوف على ما سبقه بحسب المعنى، لتسجيل رذائلهم، وتعداد جناياتهم.

وضمير الجمع في قوله «لما لا يعلمون» يصح أن يعود إلى الكفار، كالذي قبله في «ويجعلون» .

فيكون المعنى: إن هؤلاء المشركين يفعلون ما يفعلون من إشراكهم بالله- تعالى- ومن التضرع إليه عند الضر ونسيانه عند الرخاء.. ولا يكتفون بذلك، بل ويجعلون للأصنام التي لا يعلمون منها ضراً ولا نفعاً، نصيباً مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما.

وهذا القول قال به : الطبري ، والزجاج ، والواحدي ، وابن عطية ، وابن جزي ، وابن كثير ، والقرطبي .

قال صاحب الكشاف : ومعنى كونهم لا يعلمونها ، أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع عند الله وليس كذلك ، وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع فهم إذاً جاهلون بها .

ويصح أن يعود ضمير الجمع في قوله «لما لا يعلمون» للأصنام، فيكون المعنى: ويجعلون للأصنام التي لا تعلم شيئا لأنها جماد لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر.. يجعلون لها نصيبا مما رزقناهم.

وما أجملته هذه الآية الكريمة عن جهالتهم، فصلته آيات أخرى منها قوله تعالى في سورة الأنعام (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً، فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ، وَهذا لِشُرَكائِنا، فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُون) .

(**تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ**) تهديد ووعيد لهم على سوء أفعالهم. أي: أقسم بذاتي لتسألن- أيها المشركون- سؤال توبيخ وتأنيب في الآخرة، عما كنتم تفترونه من أكاذيب في الدنيا، ولأعاقبنكم العقاب الذي تستحقونه بسبب افترائكم وكفركم

الفوائد :

١. أن الرازق هو الله ، فيجب أن تنسب الأرزاق إليه .

٢. شدة تمرد الكفار بنسبة الارزاق للأصنام .

٣. أن الأصنام جمادات فكيف تعبد من دون الله أو كيف تَرزق .

٤. تهديد للكفار على كذبهم وافترائهم على الله .

٥. أن من يخلق ويرزق هو من يستحق العبادة .

(وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)) .

[النحل : ٥٧-٥٩] .

==========

(**وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ**) أي : ويجعل هؤلاء المشركون لله البنان وينسبونهن إليه كذباً وزوراً .

قال تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى) .

(**سُبْحَانَهُ**) أي : تنزه وتقدس سبحانه عن أن يكون له بنات أو بنين ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

- وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به، نزه نفسه عن ذلك، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به، جاء موضحاً في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ).

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ).

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ).

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً).

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ).

(**وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ**) المراد الذكور من الأولاد .

فأخطأوا خطأ عظيماً وارتكبوا إثماً كبيراً في نسبة الولد لله تعالى .

وأخطأوا ثانياً في جعل البنات له سبحانه وتعالى .

قال تعالى (ألا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) .

(**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى**) أي : أخبر بولادتها. وأصل البشارة الإخبار بما يسر. لكن لما كانت ولادة الأنثى تسوؤهم حملت على مطلق الإخبار. وجوز أن يكون ذلك بشارة باعتبار الولادة، بقطع النظر عن كونها أنثى .

(**ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا**) أي : صار وجهه مسود اللون متغيراً كثيباً من الهم والغم استياء لما بشر به من ولادة أنثى له .

(**وَهُوَ كَظِيمٌ**) أي : حزين ممتلئ غيظاً وهماً ، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن .

كما قال تعالى (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ).

(**يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ**) أي : يستخفي من الناس حياء منهم ، وكراهية أن يروه فيعيبوه .

(**أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ**) الضمير يعود على المبشر به وهو الأنثى ، أي : أيبقي هذا الذي بشر به وهي الأنثى فلا يقتلها . على إهانة وإذلال منه لها ، فلا يكرمها ولا يعتني بها ولا يورثها .

(**أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ**) أم يدفنه في التراب حياً .

وقال تعالى (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ).

قال الواحدي : قال المفسّرونَ: كان الرَّجُلُ في الجاهليَّةِ إذا ضرَبَ امرأتَه المخاضُ توارى إلى أن يَعلَمَ ما يُولَدُ له، فإن كان ذكَرًا سُرَّ به وابتهَجَ، وإن كانت أنثى اكتأبَ لها وحَزِنَ، ولم يَظهَرْ للنَّاسِ أيَّامًا؛ يُدَبِّرُ كيف يَصنَعُ في أمرِها .

(**أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ**) أي : ألا ساء وقبح وبئس الحكم الذي يحكمون به .

الفوائد :

١. شدة طغيان الكفار بنسبة البنات لله .

٢. أن ادعاء الولد لله شرك .

٣. أن التَّسَخُّطُ بالإناثِ مِن أخلاقِ الجاهِليَّةِ الذين ذَمَّهم اللهُ تعالى .

٤. وجوب الإيمان بالقضاء والقدر .

٥. ذِكْرُ حَالِ هَؤُلاءِ عنْدَما يُبشَّرون بالبَنَاتِ: أن الوَاحِدَ مِنْهُم يَتغَيَّر ظَاهِرُه وباطِنُه، ظَاهِرُه في اسْوِدادِ وَجْهِهِ، وبَاطنُهُ بامتِلَائِهِ ظنًّا.

٦. التَّنديدُ التَّامُّ بهؤُلاءِ؛ حيثُ إنَّهُم إذَا بُشِّروا بالأُنْثَى صَارَتْ لهُمْ هذ الحَالُ، وهُمْ يَدَّعونها للخَالِق عَزَّ وجلَّ.

٧. وجوب تنزيه الله عن كل عيب ونقص .

٨. أن المشركينَ لَا يَرضَوْنَ بتقْدِيرِ اللهِ فإنَّهُم يَتَغَيَّرونَ ظَاهِرًا وبَاطِنًا، ظَاهِرًا باسْوِدَادِ الوُجُوهِ، وبَاطِنًا بالامتِلَاءِ ظنًّا.

(**لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)**) .

[النحل : ٦٠] .

==========

(**لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ**) المثل: الحال والصفة العجيبة في الحسن والقبح.

والمراد بمثل السوء: أفعال المشركين القبيحة التي سبق الحديث عنها.

أي: لهؤلاءِ المشرِكينَ- الذين لا يُصَدِّقونَ بالبَعثِ والثَّوابِ والعِقابِ- المَثَلُ القَبيحُ، والعَيبُ والنَّقصُ .

(**وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ**) أي: ولله الوَصفُ الأفضَلُ والأطيَبُ والأحسَنُ، مِن تَوحيدِه، وتنَزُّهِه عن الولَدِ، وأنَّ له جميعَ صِفاتِ الكَمالِ المطلَقِ مِن جَميعِ الوُجوهِ .

(**العزيز**) في ملكه بحيث لا يغلبه غالب .

(**الحكيم**) في كل أفعاله وأقواله.

الفوائد :

١-صِفاتُ اللهِ تعالى كُلُّها صِفاتُ كَمالٍ لا نَقْصَ فيها بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، كالحياةِ، والعِلمِ، والقُدرةِ، والسَّمعِ، والبَصَرِ، والرَّحمةِ، والعِزَّة، والحِكمةِ، والعُلوّ، والعَظَمةِ، وغيرِ ذلك. لقوله (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) والمثَلُ الأعلى: هو الوَصفُ الأعلى .

٢- كُل صِفةِ كَمالٍ، وكُلُّ كَمالٍ في الوُجودِ فاللهُ أحَقُّ به مِن غَيرِ أن يَستلزِمَ ذلك نقصًا بوَجهٍ، وله المثَلُ الأعلى في قُلوبِ أوليائِه، وهو: التَّعظيمُ والإجلالُ، والمحبَّةُ والإنابةُ والمعرِفةُ

٣-أنَّ الربَّ الخالقَ أَولى بأنْ يُنَزَّهَ عن الأمورِ النَّاقِصةِ مِن النَّاسِ، فكيف يَجعَلونَ له ما يَكرَهونَ أن يكونَ لهم، ويَستَحْفونَ مِن إضافتِه إليهم، مع أنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ، ولا يُنَزِّهونَه عن ذلك، ويَنفُونَه عنه، وهو أحَقُّ بنَفيِ المكروهاتِ المنَقِّصاتِ منهم ؟!

٤-قولُه تعالى (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) فيه أنَّ كُلَّ صفةِ عَيْبٍ- كالعَمى، والصَّمَمِ، والخَرَسِ، والنَّومِ، والموتِ، ونحوِ ذلك- مَنفيَّةٌ عن اللهِ تعالى؛ فإنَّ ثُبوتَ المثَلِ الأعلى له- وهو الوَصفُ الأعلى- يَستَلزِمُ انتفاءَ كلِّ صفةِ عَيبٍ .

٥- من عزة الله تعالى أنه كامل من كل الوجوه .

٦- إثبات اسم الحكيم لله المتضمن كمال الحكمة .

٧-معرفة أن الله له الحكمة البالغة تجعل المسلم مطمئناً منشرح الصدر .

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)) .

[النحل : ٦١] .

==========

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ....) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ وَأَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ أَيْ لَأَهْلَكَ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَبَعًا لِإِهْلَاكِ بَنِي آدَمَ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ، وَيُنْظِرُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى أَيْ لَا يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، إِذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَا أَبْقَى أَحَدًا. (ابن كثير) .

قوله (من دابة) اختلف العلماء :

فقيل : يعم بني آدم وغيرهم من إنس وجن وبهائم .

واختاره الطبري ، وابن جزي ، والبغوي ، والسعدي ، والشنقيطي .

ويكون معنى الآية : أي ما ترك عليها شيئاً من دابة قط بل أهلكها بالمرة .

كما قال تعالى (وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب) .

عن ابن مسعود قال: كان الجُعل أن يعذب في جحره بذنب بني آدم ثم قرأ: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ.

وسمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال : بلى والله ، حتى الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم .

والكناية في قوله : {عليها} عائدة إلى الأرض ، ولم يسبق لها ذكر ، إلا أن ذكر الدابة يدل على الأرض ، فإن الدابة إنما تدب عليها.

وقيل : قوله تعالى (من دابة) كافرة .

ويدل لهذا التخصيص :

قوله تعالى (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ...) .

أن الله لا يعاقب أحداً بذنب أحد .

واحتجوا بقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزى أخرى) .

والراجح الأول .

فإن قيل : كيف الهلاك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم ؟

قيل : يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء ، وهلاك المؤمن معوَّضاً بثواب الآخرة.

وقد جاء في الحديث (إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على نياتهم) .

وعن أم سَلمة وسئلت عن الجيش الذي يخسف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير ، فقالت قال رسول الله ﷺ (يعوذ بالبيت عائذ فيُبعث إليه بَعْث فإذا كانوا ببَيْداء من الأرض خُسِف بهم فقلت : يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال : "يخسَف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته) .

وفي الحديث (أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث) .

ويمكن أن يقال : إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب : كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وترك التغيير ، ومداهنة أهل الظلم

وقال ﷺ (وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء) .

وقوله (مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا) أي : الأرض .

وكثيراً ما يكنى عن الأرض ، وإن لم يتقدم ذكرها لأنهم يقولون ما عليها مثل فلان وما عليها أكرم من فلان ، يعنون على الأرض ومنه قول تعالى (حتى توارت بالحجاب) ولم يجر للشمس ذكر .

قال الشنقيطي : ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه لو عجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض ، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة. لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة ، ورب السموات والأرض لا يفوته شيء أراده.

وذكر هذا المعنى في غير هذا الموضع. كقوله (وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ) .

وقوله (وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب) .

(وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) أي : يمهلهم وينظرهم فلا يعاجلهم بالعقوبة إلى أجل معين تقتضيه حكمته .

وأشار بقوله (ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى) إلى أنه تعالى يمهل ولا يهمل.

وبين ذلك في غير هذا الموضع كقوله (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار) .

وقوله (وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب) .

وبين هنا : أن الإنسان إذا جاء أجله لا يستأخر عنه ، كما انه لا يتقدم عن وقت أجله. وأوضح ذلك في مواضع أخر. كقوله : (إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ) الآية ، وقوله (وَلَن يُؤَخِّرَ الله نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات.

(فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ) أي : الوقت المحدد لهلاكهم .

(لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) أي : لا يتأخرون عن أجلهم ساعة ولا يتقدمون عنه ساعة .

كما قال تعالى (إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ) الآية .

وقوله (وَلَن يُؤَخِّرَ الله نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ) .

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة، وإنما المراد بها الوقت الذي هو في غاية القلة.

الفوائد :

١-حلم الله ومن أسمائه الحليم

قال ابن كثير: (حليم غفور) أن يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخِّر ويُنظِر، ويُؤجّل ولا يَعجل، ويستر آخرين ويغفر.

وقال السعدي: والحليم الذي يدر على خلقه النعم الظاهرة، والباطنة مع معاصيهم، وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويمهلهم كي ينيبوا.

قال ابن القيم:

هو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان.

٢-رحمة الله بخلقه .

٣-أن الله يمهل ولا يهمل .

٤-أن الظلم سبب للعقاب .

٥-أن الأجل إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر .

(وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)) .

[النحل : ٦٢-٦٣] .

==========

(وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ) أَيْ : مِنَ البنات ومن الشركاء الذين هم عَبِيدِهِ وَهُمْ يَأْنَفُونَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَحَدِهِمْ شَرِيكٌ لَهُ فِي مَالِهِ.

كما قال تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات) ثم بين كراهيتهم لها في آيات كثيرة ، كقوله (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى) وقال في الشركاء : (وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ) .

قال الواحدي : قولُه تعالى (مَا يَكْرَهُونَ) يعني: البَناتِ، في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ .

(وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى) إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٍ فَفِيهِ أَيْضًا لَهُمُ الْحُسْنَى، وَإِخْبَارٌ عَنْ قِيلِ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ .

قوله (الحسنى) قيل : المراد بها الذكور.

ويكون معنى الآية : وتصف ألسنتهم الكذب وهو قولهم : إن لهم البنين مع جعلهم ما يكرهون من البنات لله .

ورجحه القرطبي موافقاً لابن عطية ، ووافقهم السمرقندي .

واحتجوا بأن سياق الآيات في الإخبار عن حال المشركين من كرههم الإناث ونسبتهم إياها إلى الله ، وحبهم للذكور ونسبتهم لهم وأن الحسنى جاءت بمقابلة ما يكرهون ، والمراد بالأخير البنات ، فلزم أن يكون مراداً بالأول البنين .

كما تقدم في قوله (وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ) .

وقيل : الجنة .

وهو قول الزجاج ، والواحدي ، والسيوطي ، والألوسي ، والشوكاني ، والسعدي ، والشنقيطي .

قال الشنقيطي : والحق الذي لا شك فيه : أن المراد بالحسنى : هو زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقاً فسيكون لهم فيها أحسن نصيب كما كان لهم في الدنيا. ويدل على صحة هذا القول الأخير دليلان :

أحدهما : كثرة الآيات القرآنية المبينة لهذا المعنى.

كقوله تعالى عن الكافر (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَمَآ أَظُنُّ السَّاعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى) .

وقوله (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً) وقوله (وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً) وقوله (وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) .

والدليل الثاني : أن الله أتبع قوله (أَنَّ لَهُمُ الحسنى) بقوله (لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار) الآية فدل ذلك دلالة واضحة على ما ذكرنا ، والعم عند الله.

قال ابن عطية : { الحسنى } قال مجاهد وقتادة : الذكور من الأولاد ، وهو الأسبق من معنى الآية ، وقالت فرقة يريد الجنة.

قال القاضي أبو محمد : ويؤيد هذا قوله (لا جرم أن لهم النار) ومعنى الآية على هذا التأويل يجعلون لله المكروه ويدعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنة ، كما تقول لرجل أنت تعصي الله ، وتقول مع ذلك أنت تنجو ، أي هذا بعيد مع هذا .

وقال الخازن : يعني ويقولون : إن لهم البنين وذلك أنهم قالوا : لله البنات ولنا البنون ، وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله.

وقيل : أراد بالحسنى الجنة ، والمعنى أنهم مع كفرهم ، وقولهم الكذب يزعمون أنهم على الحق وأن لهم الجنة

قال ابن كثير : فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ بَيْنَ عَمَلِ السُّوءِ وَتَمَنِّي الْبَاطِلِ بِأَنْ يُجَازَوْا عَلَى ذَلِكَ حُسْنًا وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ .

(**لاَ جَرَمَ**) أي : حقاً لا بد منه .

(**أَنَّ لَهُمُ النَّارَ**) يوم القيامة .

(**وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ**) قيل : مَنْسِيُّونَ فِيهَا مُضَيَّعُونَ .

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى (فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) .

وقيل : مُفْرَطُونَ أَيْ مُعَجَّلُونَ إِلَى النَّارِ مِنَ الْفَرَطِ، وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْوِرْدِ .

وَلَا مُنَافَاةَ لِأَنَّهُمْ يُعَجَّلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلى النار وينسون فيها أي يخلدون.

(**تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**) هذا تسلية للنبيّ ﷺ بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم.

(**فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ**) وهو تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريخ لهم .

والولي : الحامي الناصر .

قال القرطبي : يعني يوم القيامة ، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته.

وقيل يقال لهم يوم القيامة : هذا وليّكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب ، على جهة التوبيخ لهم.

قال الخازن : وإنما سماه ولياً لهم لطاعتهم إياه .

وقيل : المراد باليوم الدنيا .

فيكون المعنى : فهو ناصرهم في الدنيا على زعمهم ولهم عذاب أليم في الآخرة .

وهذا قول الطبري ، وأبي السعود ، والشوكاني ، والسعدي .

قالوا : إن الأصل في استعمال اليوم : هو اليوم الحاضر ، وهو اليوم الذي أنت فيه .

(**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) شديد .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا) .

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ).

وقال تعالى (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون).

وقال تعالى (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ).

وقال تعالى (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ).

وقال تعالى (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى. نَزَّاعَةً لِلشَّوَى. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى). وقال تعالى (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ).

وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ. قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ). وقال تعالى (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً).

وقال تعالى (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ).

وقال تعالى (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً).

وقال تعالى (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ). وقال تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ).

وقال ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ).

الفوائد :

١. طغيان الكفار بجعلهم البنات لله .

٢. وجوب تنزيه الله عن الولد .

٣. ذم من يكره البنات .

٤. كذب الكفار ودعواهم أن لهم الجنة .

٥. بل الكفار لهم النار أبد الآبدين .

٦. كثرة الرسل .

٧. أن رسولنا آخر الرسل .

٨. تسلية النبي ﷺ .

٩. كثير من الأمم كذبت رسولها .

١٠. الشيطان يزين للكفار أعمالهم (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

[النحل : ٦٤] .

==========

(**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ**) أي : وما أنزلنا عليك يا محمد القرآن .

(**إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ**) أي : إلا أجل أن تبين للناس الذي اختلفوا فيه، ببيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والتوحيد من الشرك .

فمن أعظم آثار رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).

(**وَهُدًى**) أي: بيان ودلالة، أي: أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

– فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام، ويطلق هداه على الهدى الخاص، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، ومنه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي: بينا الحق على لسان نبينا صالح، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ). وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي).

– وكون الهدى يُطلق إطلاقًا عامًّا وإطلاقًا خاصًّا إذا فهم الإنسان ذلك زالت عنه إشكالات في كتاب الله، ومناقضات يظنها الجاهل ببعض آيات الله، كقوله تعالى في نبينا ﷺ (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) مع قوله فيه (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فنفى عنه الهدى في آية وأثبته له في آية، فالهدى المثبت له في قوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) هو الهدى بمعناه العام، وهو البيان والإيضاح. وقد بين ﷺ هذه المحَجَّة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ﷺ أما الهدى المنفي عنه في قوله (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فهو التفضل بالتوفيق وسعادة المرء؛ لأن هذا بيد الله وحده (وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شيئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) (إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ).

فالمراد بالهدى هنا الهدى الخاص، وهو التوفيق والتيسير للأعمال التي يحبها الله.

قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا).

وقوله (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ).

(**وَرَحْمَةٌ**) فإن العمل بكتاب الله رحمة وهداية ونور للبشرية، وبها تحصل السعادة والخير الكثير.

كما قال تعالى: (وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا).

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

لقد سمى الله القرآن العظيم شفاء في ثلاثة مواضع:

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وقال تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا).

- وقد وصف الله القرآن بأوصاف منها:

أ-أنه (نور)، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً).

ب- (هدىً) و (شفاء) و (رحمة) و (موعظة)، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).

ج- (مبارك)، قال تعالى (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ).

د- (مبين)، قال تعالى (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ).

هـ- (بشرى)، قال تعالى (مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ).

و- (عزيز)، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ).

ز- (مجيد)، قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ).

(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أما القوم الذين سبق لهم الشقاء فهو حجة عليهم يدخلون به النار، كما قال تعالى (وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) لأن الله (تبارك وتعالى) منذ أنزل هذا الكتاب المنزل كان واجبًا شرعًا ألا يدخل أحد الجنة كائنًا من كان إلا عن طريق العمل به، وألا يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه سبب دخول النار.

الفوائد :

١-أن الرسول متبع للوحي الذي ينزل عليه.

٢-فضل هذا القرآن وأنه بصير لمن أراد أن يتبصر بالحق من الباطل.

٣-أن القرآن هداية لمن آمن يهديه لكل طريق صحيح.

٤-أنه كلما قوي إيمان الشخص كانت هدايته أقوى، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فمن كان إيمانه أقوى كانت هدايته أكثر.

٥- فضل الإيمان.

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)) .

[النحل : ٦٥] .

==========

(وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) أي : أنزل من السماء مطراً عذباً فراتاً أنزله سبحانه بقدرته، فأخرج بذلك المطر أنواع الثمر والفواكه والخضار.

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا).وقال تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ).

- في هذا تذكير لنعمة من نعمه سبحانه الجليلة المنبئة عن كمال قدرته عز وجل وسعة رحمته .

- وهذا الأمر من براهين البعث، فإحياء الأرض بعد موتها من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت.

قال تعالى (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى (نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ).

ولمراد بالسماء هنا العلو ، وذلك أن السماء يُطلق على معنيين: المعنى الأول: العلو ، كقوله تعالى (أنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا العلو ، لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف ، بل ينزل من العلو ، المعنى الثاني: المراد بالسماء السقف كما في قوله تعالى (وجعلنا السماء سقفاً).والسماء بناء).

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**) أي : لآية عظيمة ، وعبرة جليلة ، ودلالة واضحة تدل على وحدانية الله تعالى وقدرته وحكمته لقوم يسمعون سماع تدبر واعتبار فيعملون بما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة وإرشادات سليمة .

الفوائد :

١. من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانيته إنزال الماء من السماء وإنبات الأرض .

٢. من أدلة البعث إنبات الأرض بعد موتها .

٣. إثبات علو الله تعالى .

(**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)**) .

[النحل : ٦٦ – ٦٧] .

==========

(**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ**) أيها الناس .

والأنعام : الإبل والبقر والغنم .

(**لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ** ...) أي : وإن لكم- أيها الناس- في خلق الأنعام، وفيما يخرج منها من ألبان لعبرة عظيمة، وعظة بليغة، ومنفعة جليلة توجب عليكم إخلاص العبادة لله- تعالى- وحده، ومداومة الشكر له على نعمه. فالتنكير في قوله لَعِبْرَةً للتفخيم والتهويل.

وقوله تعالى (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) استئناف بياني، كأنه قيل: وما وجه العبرة في الأنعام؟ فكان الجواب: نسقيكم مما في بطونه. قال الآلوسي: والضمير في «بطونه» يعود للأنعام، وهو اسم جمع، واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده باعتبار لفظه، ويجوز تأنيثه وجمعه باعتبار معناه .

وفي سورة المؤمنون (مما في بطونها) .

(**مِن بَيْنِ فَرْثٍ**) وهو ما في الكرش .

(**وَدَمٍ**) وهو ما في العروق من الدم .

(**لَّبَنًا**) نافعاً لأبدانكم .

(**خَالِصًا**) نقياً صافياً خالي من الشوائب والأكدار .

(**سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ**) السائغ: اللذيذ الطعم، السهل المدخل الى الحلق ، بحيث يمر بالحلق بسهولة ويسر .

وقدم- سبحانه- قوله: مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ على قوله لَبَناً، لأن خروج اللبن من بينهما هو موطن العبرة، وموضع الدليل الأسمى على قدرة الله- تعالى- ووحدانيته.

وقال الآلوسي : ومن تدبر في بدائع صنع الله- تعالى- فيما ذكر من الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها، والأسباب المولدة لها، وتسخير القوى المتصرفة فيها ... اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه- سبحانه- وقدرته، وحكمته، وتناهى رأفته ورحمته: حكم حارت البرية فيها ... وحقيق بأنها تحتار.

هذا، وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن اللبن نعمة جزيلة من نعم الله- تعالى- على خلقه.

قال القرطبي : روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال (أتي رسول الله ﷺ بلبن فشرب، ثم قال: إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل، اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه، وإذا سقى لبنا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن) .

ثم قال الإمام القرطبي: قال علماؤنا: فكيف لا يكون كذلك، وهو أول ما يغتذى به الإنسان، وتنمو به الأبدان، فهو قوت به قوام الأجسام، وقد جعله الله- تعالى- علامة لجبريل على هداية هذه الأمة، ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. فقال لي جبريل: اخترت الفطرة .

(**وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا**) أي : ولكم مما أنعم الله به عليكم ، من ثمرات النخيل والأعناب ما تجعلون منه خمراً يسكر .

قال الطبري : وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، ثم حُرِّمت بعد .

وقال الواحديّ : وَرِزْقًا حَسَنًا يريدُ الخَلَّ، والزَّبيبَ، والتَّمرَ، وكُلَّ ما يُتَّخَذُ مِن النَّخيلِ والأعنابِ، وهذا قَولُ عامَّةِ المفَسِّرينَ؛ قالوا: السَّكَرُ: هي الخَمرُ بعَينِها، والسَّكَرُ حَرامٌ، والرِّزقُ الحسَنُ حَلالٌ، وقالوا: نزَلَت هذه قبلَ تحريمِ الخَمرِ، ونزل تحريمُها في سورةِ المائدة.

وقال ابنُ عطية : نزلت هذه الآيةُ قبلَ تحريمِ الخَمرِ، وأراد بالسَّكَرِ الخَمْرَ، وبالرِّزقِ الحَسَنِ جميعَ ما يُشرَبُ ويُؤكَلُ حَلالًا مِن هاتَينِ الشَّجَرتينِ .

(**وَرِزْقًا حَسَنًا**) كالتمر والزبيب .

ومن العلماء من فسر السكر بأنه اسم للخل، أو للعصير غير المسكر، أو لما لا يسكر من الأنبذة .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) باهرة، ودلالة واضحة، على قدرة الله- تعالى- ووحدانيته، (لقوم يعقلون) هذه التوجيهات الحكيمة، فيدركون أن من يفعل كل ذلك وغيره، هو المستحق للعبادة والطاعة : ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

الفوائد :

١. نعمة الله العظيمة لنا بتسخير الأنعام نأكل من لحمها ونشرب من لبنها .
٢. كثرة نعم الله على عباده وتنوعها .
٣. الله يكثر من تعداد نعمه علينا لنقوم بشكره .
٤. من نعم الله ما يخرج من ثمرات النخيل والأعناب .
٥. في تيسير هذه النعم عبرة وآية عظيمة على أنه سبحانه هو المستحق .

٦. فضل من يعقل هذه النعم ويتأملها ويتفكر فيها .

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)) .

[النحل : ٦٨-٩٦] .

==========

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) لمراد من الوحي : الإلهامُ والهداية ، أي: ألهمها مصالحها وأرشدها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة تأوي إليها .

أي: وألْهَم ربُّك- يا مُحمَّدُ- النَّحلَ أن اتَّخِذي مِن الجِبالِ بُيوتًا تَأوينَ إليها، ومِن الأشجارِ، ومِمَّا يبني النَّاس .

قال الواحدي: (وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) معناه: يبنون ويسقُفون، يعني: ما يبني النَّاسُ لها من خلاياها التي تعمَلُ فيها النَّحلُ .

قال القرطبي: لا خِلافَ بين المتأوِّلينَ أنَّ الوَحيَ هنا بمعنى الإلهامِ .

وقال الشَّوكاني: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) الوَحي يكونُ بمعنى الإلهامِ، وهو ما يخلُقُه في القَلبِ ابتداءً مِن غَيرِ سَبَبٍ ظاهرٍ، ومنه قولُه سُبحانَه (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) ، ومِن ذلك إلهامُ البهائمِ لفعلِ ما ينفعُها، وتركِ ما يضُرُّها .

معنى (وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) أي : وما يهيئه الناس من العرائش والسقف والبيوت والخلايا.

قال ابن كثير : المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية، والإرشاد للنحل أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ فِي تَسْدِيسِهَا وَرَصِّهَا بِحَيْثُ لا يكون في بيتها خَلَلٌ، ثُمَّ أَذِنَ لَهَا تَعَالَى إِذْنًا قَدَرِيًّا تَسْخِيرِيًّا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَنْ تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هَذَا الْجَوِّ الْعَظِيمِ، وَالْبَرَارِي الشَّاسِعَةِ، وَالْأَوْدِيَةِ وَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ، ثُمَّ تَعُودُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَى بيتها لَا تَحِيدُ عَنْهُ يُمْنَةً وَلَا يُسْرَةً، بَلْ إِلَى بَيْتِهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاخٍ وَعَسَلٍ، فَتَبْنِي الشَّمْعَ مِنْ أَجْنِحَتِهَا وَتَقِيءُ الْعَسَلَ مِنْ فِيهَا، وَتَبِيضُ الْفِرَاخَ مِنْ دُبُرِهَا، ثُمَّ تُصْبِحُ إِلَى مَرَاعِيهَا.

(ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) أي : كلي من كل الأزهار والثمار ، التي تشتهينها من الحلو ، والمر ، والحامض ، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل!

قال ابن جُزي : (من كل الثمرات) مِنْ للتَّبعيضِ، وذلك أنَّها إنما تأكُلُ النُّوَّارَ مِن الأشجارِ. وقيل: المعنى: مِن كُلِّ الثَّمَراتِ التي تَشتَهيها .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) السبل: جمع سبيل. والمراد بها الطرق التي تسلكها النحلة في خروجها من بيتها وفي رجوعها إليه وأضاف- سبحانه- السبل إليه، لأنه هو خالقها وموجدها.

وذللا: جمع ذلول وهو الشيء الممهد المنقاد، وهو حال من السبل، أي : فاسلكي سبل ربك حال كونها ممهدة لك، لا عسر في سلوكها عليك، وإن كانت صعبة بالنسبة لغيرك.

قال الرازي : قوله (ذُلُلاً) ففيه قولان : الأول : أنه حال من السبل لأن الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها ،كقوله (هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً) .

الثاني : أنه حال من الضمير في (فاسلكي) أي وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة.

قال ابن جرير: وكلا القولينِ غيرُ بعيدٍ مِن الصوابِ في الصحةِ، وجهانِ مخرَّجان .

(يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) أي : يخرج من بطون النحل عسل متنوع ، منه أحمر ، وأبيض ، وأصفر .

(**فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ**) أيْ : فِي العسل شفاء للناس، أي مِنْ أَدْوَاءٍ تَعْرِضُ لَهُمْ .

والضمير في قوله (فيه) راجع للعسل .

قال الرازي : قوله (فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ) وفيه قولان : القول الأول : وهو الصحيح أنه صفة للعسل.

قال ابن القيم : وَقَدْ اخْتَلَفَ النّاسُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنّاسِ) هَلْ الضّمِيرُ فِي " فِيهِ " رَاجِعٌ إلَى الشّرَابِ أَوْ رَاجِعٌ إلَى الْقُرْآنِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ الصّحِيحُ رُجُوعُهُ إلَى الشّرَابِ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالْأَكْثَرِينَ فَإِنّهُ هُوَ الْمَذْكُورُ وَالْكَلَامُ سِيقَ لِأَجْلِهِ وَلَا ذِكْرَ لِلْقُرْآنِ فِي الْآيَةِ وَهَذَا الْحَدِيثُ الصّحِيحُ وَهُوَ قَوْلُهُ " صَدَقَ اللّهُ " كَالصّرِيحِ فِيهِ وَاَللّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . (زاد المعاد) .

قال ابن كثير : وقال مجاهد وابن جرير فِي قَوْلِهِ: فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ يَعْنِي الْقُرْآنَ، وَهَذَا قَوْلٌ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ الظَّاهِرُ هَاهُنَا مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ، فَإِنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا ذَكَرَ فِيهَا الْعَسَلَ وَلَمْ يُتَابَعْ مُجَاهِدٌ عَلَى قَوْلِهِ هَاهُنَا، وَإِنَّمَا الَّذِي قَالَهُ ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ هُوَ الْعَسَلُ، الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ :عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أن رجلا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ، فَقَالَ «اسقه عسلاً» فذهب فَسَقَاهُ عَسَلًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَقَيْتُهُ عَسَلًا، فَمَا زَادَهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فَسَقَاهُ عَسَلًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا زَادَهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا» فَذَهَبَ فسقاه عسلا فَبَرِئَ) .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِالطِّبِّ: كَانَ هَذَا الرَّجُلُ عِنْدَهُ فَضَلَاتٌ، فَلَمَّا سَقَاهُ عَسَلًا وَهُوَ حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالا، فَاعْتَقَدَ الْأَعْرَابِيُّ أَنَّ هَذَا يَضُرُّهُ وَهُوَ مَصْلَحَةٌ لِأَخِيهِ، ثُمَّ سَقَاهُ فَازْدَادَ التَّحْلِيلُ وَالدَّفْعُ، ثُمَّ سَقَاهُ فَكَذَلِكَ، فَلَمَّا انْدَفَعَتِ الْفَضَلَاتُ الْفَاسِدَةُ الْمُضِرَّةُ بِالْبَدَنِ، اسْتَمْسَكَ بَطْنُهُ، وَصَلُحَ مِزَاجُهُ، وَانْدَفَعَتِ الْأَسْقَامُ وَالْآلَامُ بِبَرَكَةِ إِشَارَتِهِ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعْجِبُهُ الْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ) .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ).

وقال ابن العربي : قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَالْحَسَنُ ، وَالضَّحَّاكُ : إنَّ الْهَاءَ فِي قَوْلِهِ : " فِيهِ " يَعُودُ عَلَى الْقُرْآنِ ، أَيْ الْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ.

وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ ، مَا أَرَاهُ يَصِحُّ عَنْهُمْ ؛ وَلَوْ صَحَّ نَقْلًا لَمْ يَصِحَّ عَقْلًا ؛ فَإِنَّ مَسَاقَ الْكَلَامِ كُلِّهِ لِلْعَسَلِ ، لَيْسَ لِلْقُرْآنِ فِيهِ ذِكْرٌ ؛ وَكَيْفَ يَرْجِعُ ضَمِيرٌ فِي كَلَامٍ إلَى مَا لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ مِنْهُ ؟ وَلَكِنَّهُ إنَّمَا يُرَاعَى مَسَاقُ الْكَلَامِ وَمَنْحَى الْقَوْلِ ، وَقَدْ حَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَلِكَ هذَا الْإِشْكَالِ ، وَأَزَاحَ وَجْهَ الِاحْتِمَالِ حِينَ أَمَرَ الَّذِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ بِشُرْبِ الْعَسَلِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ بِأَنَّ الْعَسَلَ لَمَّا سَقَاهُ إيَّاهُ مَا زَادَهُ إلَّا اسْتِطْلَاقًا أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِعَوْدِ الشُّرْبِ لَهُ ، وَقَالَ لَهُ (صَدَقَ اللَّهُ ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيك) .

قال القرطبي : قوله تعالى : { فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ } الضمير للعسل ؛ قاله الجمهور ، أي في العسل شفاء للناس.

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) أَيْ : إنَّ فِي إلْهَامِ اللَّهِ لِهَذِهِ الدَّوَابِّ الضَّعِيفَةِ الْخِلْقَةِ إلَى السُّلُوكِ فِي هَذِهِ الْمَهَامَةِ وَالِاجْتِنَاءِ مِنْ سَائِرِ الثِّمَارِ، ثُمَّ جَمْعِهَا لِلشَّمْعِ وَالْعَسَلِ وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الْأَشْيَاءِ، لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمُقَدِّرِهَا وَمُسَخِّرِهَا وَمُيَسِّرِهَا، فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْكَرِيمُ الرحيم.

الفوائد :

١-عظمة الله تعالى في خلق النحل وما فيه من العبر .

٢-إلهام الله للنحل أن تفعل ما أمرها به .

٣-في خَلقِ هذه النَّحْلةِ الصَّغيرةِ التي هداها اللهُ هذه الهِدايةَ العَجيبةَ، ويَسَّرَ لها المراعيَ، ثمَّ الرُّجوعَ إلى بُيوتِها التي أصلَحَتْها بتَعليمِ اللهِ لها، وهِدايتِه لها، ثمَّ يَخرُجُ مِن بُطونِها هذا العسَلُ اللَّذيذُ مختَلِفَ الألوانِ بحَسَبِ اختلافِ أرْضِها ومَراعيها، فيه شِفاءٌ للنَّاسِ مِن أمراضٍ عديدةٍ- في ذلك دَليلٌ على كَمالِ عِنايةِ الله تعالى، وتمامِ لُطفِه بعِبادِه، وأنَّه الذي لا ينبغي أن يُحَبَّ غَيرُه، ويُدعَى سِواه. (السعدي)

٤-الإشارة إلى أنَّ بُيوتَ النحل تُتَّخَذُ في أحسَنِ البِقاعِ مِن الجِبالِ أو الشَّجَرِ أو العَرشِ دونَ بُيوتِ الحَشَراتِ الأخرى؛ وذلك لشرَفِها بما تَحتويه مِن المنافِعِ، وبما تَشتَمِلُ عليه مِن دقائِقِ الصَّنعةِ، ألا ترى إلى قَولِه تعالى في ضِدِّها: (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ). (ابن عاشور)

٥- قوله تعالى (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) وقال (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) لم يَصِفِ اللهُ في كتابِه بالشِّفاءِ إلَّا القُرآنَ والعَسَلَ، فهما الشِّفاءانِ؛ هذا شِفاءُ القُلوبِ مِن أمراضِ غَيِّها وضَلالِها، وأدواءِ شُبُهاتِها وشَهَواتِها، وهذا شِفاءٌ للأبدانِ مِن كثيرٍ مِن أسقامِها وأخلاطِها وآفاتِها، وتأمَّلْ إخبارَه سُبحانَه وتعالى عن القُرآنِ بأنَّه نَفسَه شِفاءٌ، وقال عن العَسَل: فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ وما كان نَفسُه شِفاءً أبلَغُ ممَّا جُعِلَ فيه شِفاءٌ ! (ابن القيم) .

٦-فضل العسل .

٧-أن العسل شفاء .

٨-فضل التفكر في خلق الله وبديع صنعه .

٩-إنَّ في إلهامِ الله للنحلِ باتخاذِ البيوتِ مِن الجبالِ والشَّجر والعُروشِ، والسلوكِ في المراعي للاجتناءِ مِن سائرِ الثِّمار؛ ليَخرجَ مِن بطونِها هذا العسلُ ذو الألوانِ المتعددةِ، الذي جعَل الله فيه شفاءً للناسِ لدلالةً وحجةً واضحةً لقومٍ يتفكَّرون في عظمةِ خالقِها ومسخِّرِها، فيَستدِلُّون بذلك على أنَّه القادرُ، الحكيمُ، العليمُ، الكريمُ، الرحيمُ، اللطيفُ الذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَه .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)) .

[النحل : ٧٠] .

==========

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ...) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَوَفَّاهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْرُكُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ وَهُوَ الضَّعْفُ فِي الْخِلْقَةِ .

قال الخازن : (والله خلقكم) يعني أوجدكم من العدم وأخرجكم إلى الوجود ولم تكونوا شيئاً .

(ثم يتوفاكم) يعني عند انقضاء آجالكم إما صبياناً وإما شباناً وإما كهولاً .

(ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) يعني أرداه وأضعفه وهو الهرم . (تفسير الخازن) .

واختلف العلماء في أرذل العمر هل هو مقدر بسن معينة أم لا ؟

والراجح أنه لا يتقدر بسن معينة ، وأنه عام فيمن يلحقه الخرف والهرم .

ورجحه الطبري ، والزجاج ، والسمرقندي ، والواحدي ، والسمعاني ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي .

والشوكاني ، والشنقيطي ، وهو قول جمهور العلماء .

والمراد بأرذل العمر: أضعفه وأوهاه وهو وقت الهرم والشيخوخة، الذي تنقص فيه القوى، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها.

قال الماوردي : أوضعه وأنقصة ، قاله الجمهور.

قال ابن عطية : قوله تعالى (لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً) أي يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبلُ من الأمور لفرط الكبر.

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً) .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يَدْعُو (أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَفِتْنَةِ المحيا والممات) .

ولقد استعاذ النبي ﷺ من أن يصل عمره إلى هذه السن :

لأنها سن تتكاثر فيها الآلام والمتاعب. وقد يصير الإنسان فيها عالة على غير

ما فيه مِن الخَرَفِ واختلالِ العَقلِ والحَوَاسِّ والضَّبطِ والفَهمِ، وتَشويهِ بعضِ المناظِرِ، والعَجزِ عن كَثيرٍ مِن الطَّاعاتِ والتَّساهُلِ في بعضِها.

قال ابن عطية : وخص ذلك بالرذيلة وإن كانت حال الطفولية كذلك ، من حيث كانت هذه لأرجاء معها ، والطفولية إنما هي بدأة والرجاء معها متمكن .

وقال أبو حيان : خص بالرذيلة لأنها حالة لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد ، بخلاف حال الطفولة فإنها حالة تتقدم فيها إلى القوة وإدراك الأشياء .

وقال ابن عاشور : والهرم لا ينضبط حصوله بعدد من السنين ، لأنه يختلف باختلاف الأبدان والبلدان والصحة والاعتلال على تفاوت الأمزجة المعتدلة ، وهذه الرذالة رذالة في الصحّة لا تعلّق لها بحالة النفس ، فهي مما يعرض للمسلم والكافر فتسمّى أرذل العمر فيهما ، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من أن يردّ إلى أرذل العمر.

وقال الصنعاني في سبل السلام :والمراد من الرد إلى أرذل العمر: هو بلوغ الهرم والخرف، حتى يعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية، ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم .انتهى. وزاد المباركفوري في بيان المعنى فقال :ويقال: أرذل العمر أردؤه وهو حالة الهرم والضعف عن أداء الفرائض وعن خدمة نفسه فيما يتنظف فيه فيكون كلا على أهله ثقيلاً بينهم يتمنون موته .انتهى. تحفة الأحوذي.

(**لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً**) أي: نَرُدُّ مَن نشاءُ إلى أرذَلِ العُمُرِ؛ لِيَصيرَ جاهِلًا لا يعلَمُ بعد عِلمِه بالأمورِ شَيئًا، فيَنسى ما كان يَعلَمُه مِن قبلُ، فالذي ردَّه إلى هذه الحالِ قادرٌ- سُبحانَه- على أن يُميتَه ثُمَّ يُحيِيَه ويَبعَثَه للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ .

(**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**) عليم بمقادير أعماركم { قَدِيرٌ } على كل شيء يميت الشابَّ النشيطَ ويُبقي الهرِمَ الفانيَ ، وفيه تنبيهٌ على أن تفاوتَ الآجالِ ليس إلا بتقدير قادرٍ حكيم ركب أبنيتَهم وعدّل أمزجتَهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوتُ هذا المبلغ.

الفوائد :

١. أن الخالق هو الله .

٢. أن المميت هو الله .

٣. أن من يخلق ويميت هو المستحق للعبادة .

٤. كل مخلوق سوف يموت .

٥. من الناس من يموت صغيراً ومنهم من يموت شاباً ومنهم من يموت كبيراً .
٦. من الناس من يكبر حتى يرد إلى أرذل العمر .
٧. عموم علم الله تعالى .
٨. عموم قدرة الله تعالى على كل شيء .

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)) .

[النحل : ٧١] .

==========

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ) يعني أن الله سبحانه وتعالى بسط على واحد وضيق وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر ، وكما فضل بعضكم على بعض في الرزق ، كذلك فضل بعضكم على بعض في الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن ، والقبح والعلم والجهل وغير ذلك.

فهم متفاوتون ومتباينون في ذلك كله ، وهذا مما اقتضته الحكمة الإلهية والقدرة الربانية . (تفسير الخازن) .

قال الشوكاني : قوله تعالى (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ) فجعلكم متفاوتين فيه ، فوسع على بعض عباده حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفاً مؤلفة من بني آدم، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلاّ بسؤال الناس والتكفف لهم، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها ، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال ، جعله بينهم في العقل والعلم والفهم وقوّة البدن وضعفه ، والحسن والقبح ، والصحة والسقم ، وغير ذلك من الأحوال . (فتح القدير)

كما قال تعالى (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله) .

قال الرازي : اعلم أن هذا اعتبار حال أخرى من أحوال الإنسان ، وذلك أنا نرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفنى عمره في طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ، ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلاً وفهماً تنفتح عليه أبواب الدنيا ، وكل شيء خطر بباله ودار في خياله فإنه يحصل له في الحال ، ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أفضل في هذه الأحوال ، فلما رأينا أن الأعقل أقل نصيباً ، وأن الأجهل الأخس أوفر نصيباً ، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام ، كما قال تعالى : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا) .

وقال : واعلم أن هذا التفاوت غير مختص بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح ، وهذا بحر لا ساحل له وقد كنت مصاحباً لبعض الملوك في بعض الأسفار ، وكان ذلك الملك كثير المال والجاه ، وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه ، وما كان يمكنه ركوب واحد منها ، وربما حضرت الأطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده ، وما كان يمكنه تناول شيء منها ، وكان الواحد منا صحيح المزاج قوي البنية كامل القوة ، وما كان يجد ملء بطنه طعاماً، فذلك الملك وإن كان يفضل على هذا الفقير في المال، إلا أن هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك في الصحة والقوة، وهذا باب واسع إذا اعتبره الإنسان عظم تعجبه منه.

قال ابن عاشور : هذا من الاستدلال على أن التّصرف القاهر لله تعالى.

ووجه الاستدلال به على التصرّف القاهر أن الرزق حاصل لجميع الخلق وأن تفاضل الناس فيه غير جار على رغباتهم ولا على استحقاقهم ؛ فقد تجد أكيس الناس وأجودهم عقلاً وفهماً مقتّراً عليه في الرزق ، وبضدّه ترى أجهل الناس وأقلّهم تدبيراً موسّعاً عليه في الرزق ، وكلا الرجلين قد حصل له ما حصل قهراً عليه ، فالمقتّر عليه لا يدري أسباب التّقتير ، والموسّع عليه لا يدري أسباب تيسير رزقه ، ذلك لأن الأسباب كثيرة متوالدة ومتسلسلة ومتوغّلة في الخفاء حتى يُظن أن أسباب الأمرين مفقودة وما هي بمفقودة ولكنها غير محاط بها.

من الحكم في تفاوت حال الناس في الفقر والغنى :

منها : جد بعضهم ومهارته في التكسب، وخمول بعضهم وكسله .

ومنها : تسخير بعض العباد لبعض المهن التي لا يستطيع البعض مزاولتها .

كما قال تعالى (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) .

فأغنى الله بعض الناس وأفقر بعضاً ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .

قال الصاوي : إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق ، لينتفع بعضهم ببعض ، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال ، لم يخدم أحد أحداً ، فيفضي إلى خراب العالم ، وفساد نظامه .

وقال أبو حيان : وقوله تعالى (سخرياً) بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام ، لا من السخرية بمعنى الهزء ، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض ، ويصلوا إلى منافعهم ، ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ، ما أطاق ذلك ، وضاع وهلك ، وفي قوله (نحن قسمنا) تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا ، وعون على التوكل على الله . (البحر المحيط) .

وقال قتادة : تلقى إنساناً ضعيف القوة ، قليل الحيلة ، عيي اللسان ، وهو موسع عليه في الرزق ، وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان ، وهو مقتر عليه في الرزق ، وقال الشافعي : ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق .

ومنها : كذلك أن الفقر قد يكون أصلح لبعضهم من الغنى، والعكس صحيح .

ومنها : ابتلاء الغني في غناه هل يشكر، وابتلاء الفقير هل يرضى ويصبر .

قال الله تعالى (ورفعنا بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم) .

هذا وليعلم أن إغناء هذا وإفقار هذا لا يدل بالضرورة على تكريم الغني ولا إهانة الفقير .

كما قال الله تعالى (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كلا) .

(**فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء**) أي: ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك، فيما رزقهم الله من الأموال ، حتى يستووا في ذلك مع عبيدهم ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين ، إنهم لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني ؟

قال القرطبي : (فَمَا الذين فُضِّلُواْ) أي في الرزق (بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رُزق شيئاً حتى يستوي المملوك والمالك في المال.

وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام ، أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عُبد ؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه ، حكى معناه الطبري ، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.

وقال الخازن : قوله تعالى (فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم) يعني من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الأصنام شركاء لله قال قتادة : هذا مثل ضربه الله .

يقول : هل منكم أحد يرضى أن يشركه مملوكه في جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده .

وقيل : في معنى الآية أن الموالي والمماليك الله رازقهم جميعاً { فهم فيه } يعني في رزقه { سواء } فلا تحسبن أن الموالي يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم ، بل ذلك رزق الله أجراه على أيدي الموالي للمماليك ، والمقصود منه بيان أن الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وأن الموالي والمماليك في الرزق سواء وأن المالك لا يرزق المملوك ، بل الرازق للمماليك والمالك هو الله سبحانه وتعالى .

(**أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**) الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أي : أيجحدون نعمة الله عليهم برزقه إياهم ويكفرون بها بعبادتهم من دون آلهة وإشراكهم معه في سلطانه وملكه .

الفوائد :

١. أن الرازق هو الله .
٢. تفاوت الناس في الرزق وفي كل شيء .
٣. حكمة الله تعالى في هذا التفاوت .
٤. أن الله له الحكمة الكاملة البالغــة .

(**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)**) .

[النحل : ٧٢] .

==========

(**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا**) **أي** : جعل لكم من جنسكم أزواجاً لأنه خطاب عام يعم الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل .

قال الشنقيطي : ذَكَرَ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ امْتَنَّ عَلَى بَنِي آدَمَ أَعْظَمَ مِنَّةٍ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِهِمْ وَشَكْلِهِمْ ، وَلَوْ جَعَلَ الْأَزْوَاجَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ مَا حَصَلَ الْائْتِلَافُ وَالْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ .

وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَمَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ، وَجَعَلَ الْإِنَاثَ أَزْوَاجًا لِلذُّكُورِ ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمِنَنِ ، كَمَا أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – هُوَ الْمُسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ .

وَأَوْضَحَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ : أَنَّ هَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَنَّهَا مِنْ آيَاتِهِ – جَلَّ وَعَلَا –

كَقَوْلِهِ (ومن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وَقَوْلِهِ تعالى (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) .

(**وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ**) أي : وجعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد .

(**وَحَفَدَةً**) جمعُ حافد وهو الذي يسرع في الخِدمة والطاعة ، ومنه قولُ القانت : "وإليك نسعى ونحفد" أي جعل لكم خدماً يسرعون في خدمتكم وطاعتِكم.

وقيل : المرادُ بهم أولادُ الأولاد ، وقيل : البناتُ عبّر عنهن بذلك إيذاناً بوجه المنة بأنهن يخْدُمن البيوت أتمَّ خدمة ، وقيل : أولادُ المرأة من الزوج الأول ، وقيل : البنون ، والعطفُ لاختلاف الوصفين ، وقيل : الأختان على البنات .

قال الشوكاني : ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد ، لأنه سبحانه امتنّ على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة.

وقال الشنقيطي : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالْحَفَدَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ :

فَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْحَفَدَةُ : أَوْلَادُ الْأَوْلَادِ ، أَيْ : وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ ، وَمِنَ الْبَنِينَ حَفَدَةً .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْحَفَدَةُ الْأَعْوَانُ وَالْخَدَمُ مُطْلَقًا .

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَرِينَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْحَفَدَةَ أَوْلَادُ الْأَوْلَادِ : لِأَنَّ قَوْلَهُ (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى اشْتِرَاكِ الْبَنِينَ وَالْحَفَدَةِ فِي كَوْنِهِمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ أَوْلَادِ أَزْوَاجِهِمْ .

وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَغَيْرِهِمَا . وَمَعْلُومٌ: أَنَّ أَوْلَادَ الرَّجُلِ ، وَأَوْلَادَ أَوْلَادِهِ: مِنْ خَدَمِهِ الْمُسْرِعِينَ فِي خِدْمَتِهِ عَادَةً. وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

(**وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**) يعني النعم التي أنعم عليكم من أنواع الثمار والحبوب والحيوان ، والأشربة المستطابة الحلال من ذلك كله

(**أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ**) يعني بالأصنام وقيل : بالشيطان يؤمنون وقيل : معناه يصدقون أن لي شريكاً وصاحبة وولداً وهذا استفهام إنكار أي ليس لهم ذلك .

(**وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ**) يعني أنهم يضيفون ما أنعم الله به عليهم إلى غيره ، وقيل معناه إنهم يجحدون ما أحل الله لهم

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: "أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ممتنا عليه" ألم أزوجك؟ ألم أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ ترأس وتَرْبع ؟

الفوائد :

١. من نعم الله وآياته العظيمة خلق الأزواج للسكن والراحة .

٢. من نعم الله أنه جعل أزواجكم من أنفسكم حتى تستطيعون العيش معهن .

٣. من رحمة الله رزق الأولاد وأولاد الأولاد .

٤. حاجة الإنسان للولد ليخدمه .

٥. أن الرازق هو الله .

٦. أن الله أنعم علينا من المآكل والمشروبات وغيرها من الطيبات .

٧. وجوب شكر الله على نعمه .

٨. أن صرف النعمة لغير الله كفر بها .

٩. وجوب إضافة النعمة إلى رازقها وهو الله .

(**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧٤)**) .

[النحل : ٧٣-٧٤] .

==========

(**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) يعني الأصنام التي لا تقدر على إنزال المطر الذي في السموات خزائنه ، ولا يقدرون على إخراج النبات الذي في الأرض معدنه .

(**شَيْئًا**) يعني لا يملك من الرزق شيئاً قليلاً ولا كثيراً ، وقيل معناه يعبدون ما لا يرزق شيئاً .

(**وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ**) أي: ولا تَقدِرُ الأصنامُ والمعبوداتُ مِن دُونِ اللهِ أن تَرزُقَ عابِديها شَيئًا؛ فليس لهم أيُّ نَوعٍ مِن أنواعِ الاستطاعةِ أصلاً . (فهؤلاء لا يَملِكونَ ولا يَقدِرونَ!) .

وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا مَنْ يَرْزُقُ الْخَلْقَ : لِأَنَّ أَكْلَهُمْ رِزْقَهُ ، وَعِبَادَتَهُمْ غَيْرَهُ كُفْرٌ ظَاهِرٌ لِكُلِّ عَاقِلٍ . وَهَذَا الْمَعْنَى الْمَفْهُومُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَيَّنَهُ – جَلَّ وَعَلَا – فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ

كَقَوْلِهِ (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

وَقَوْلِهِ (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) .

قَوْلِهِ (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ وَقَوْلِهِ : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) .

وَقَوْلِهِ (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) وَقَوْلِهِ (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) .

(**فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ**) نَهَى اللَّهُ –جَلَّ وَعَلَا– فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ خَلَقَهُ أَنْ يَضْرِبُوا لَهُ الْأَمْثَالَ، أَيْ : يَجْعَلُوا لَهُ أَشْبَاهًا وَنُظَرَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ! .

لأن الخلق كلهم عبيده ، وفي ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق ، أو الرازق بالمرزوق ، أو القادر بالعاجز .

كما قال تعالى (ولم يكن له كفوا أحد) .

(**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ**) ما تفعلون من عبادة غيره والإشراك به .

(**وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**) كنه ما أقدمتم عليه وعاقبته .

وقيل : وأنتم لا تعلمون عظمة الله تعالى حيث أشركتم به .

أي : أنتم جهلة لا معرفة لكم بالله ، ولا علم عندكم بما يجب له من التعظيم وإخلاص العبادة لله تعالى .

الفوائد :

١. تحريم عبادة غير الله .

٢. أن المعبودات غير الله لا تقدر ولا تستطيع أن ترزق أو تنفع .

٣. أن من يرزق هو من يستحق العبادة .

٤. جرم نسبة الرزق لغير الله .

٥. وجوب عبادة الله لأنه هو الخالق الرازق .

٦. وجوب طلب الرزق من الله .

٧. عموم الله تعالى بكل شيء .

٨. تهديد الكفار لكفرهم وأن الله مطلع عليهم وسيحاسبهم .

٩. لا يَحِلُّ لأحدٍ أن يعتَقِدَ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى مُماثِلٌ لأحدٍ مِن المخلوقينَ؛ ولا أنَّ أحدًا مُماثِلٌ للهِ تعالى .

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٧٥)) .

[النحل : ٧٥] .

==========

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا ...) لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال ، لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلاً ، فقال تعالى : مثلكم في إشراككم بالله الأوثان ، كمثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر ، قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف يشاء ، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال ، فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية ، فكيف يجوز للعقل أن يسوي بين الله الخالق القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء البتة .

وقيل : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر ، لأنه لما كان محروماً من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر على شيء ، وقيل : إن الكافر لما رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً ، والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، المؤمن لأنه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والإنفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سراً وجهراً في طاعة الله ، وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى{ فهو ينفق منه سراً وجهراً } فأثابه الله الجنة على ذلك.

قال الرازي : في تفسير هذ المثل قولان :

القول الأول : أن المراد أنا لو فرضنا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وفرضنا حراً كريماً غنياً كثير الإنفاق سراً وجهراً ، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة والبشرية ، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال ، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر ألبتة.

القول الثاني : أن المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر ، فإنه من حيث إنه بقي محروماً عن عبودية الله تعالى وعن طاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز ، والمراد بقوله : {وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا} هو المؤمن فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله فبين تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى.

واعلم أن القول الأول أقرب ، لأن ما قبل هذه الآية وما بعدها إنما ورد في إثبات التوحيد ، وفي الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى.

قال الأمام ابن القيم : ذكر الله تعالى مثلين : فالمثل الأول : ضربه لنفسه سبحانه والأوثان ، فالله هو المالك لكل شيء ، ينفق كيف يشاء على عبيده سرا وجهرا ، وليلا ونهارا ، والاوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إلى ويعبدونها من دوني ؟ مع التفاوت العظيم والفرق المبين ؟

قال الماوردي : وفي هذا المثل قولان :

أحدهما : أنه مثل ضربه الله للكافر لأنه لا خير عنده ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً هو المؤمن ، لما عنده من الخير ، وهذا معنى قول ابن عباس وقتادة.

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه والأوثان ، لأنها لا تملك شيئاً ، وإنهم عدلوا عن عبادة الله تعالى الذي يملك كل شيء ، قاله مجاهد.

قال ابن عطية : قال مجاهد والضحاك : هذا المثال والمثال الآخر الذي بعده إنما هو لله تعالى والأصنام ، فتلك هي للعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى تتصرف قدرته دون معقب ، وكذلك فسر الزجاج على نحو قول مجاهد.

وهذا التأويل أصوب ، لأن الآية تكون من معنى ما قبلها وبعدها في تبين أمر الله والرد على أمر الأصنام ، وذكر الطبري عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ، وعبد كان له ، وروي تعيين غير هذا ولا يصح إسناده .

قال الخازن : فإن قلت : لم قال عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف؟ قلت : إنما ذكر المملوك ليتميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً لأنهما من عباد الله ، وقوله : لا يقدر على شيء احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له في التصرف ، لأنهما يقدران على التصرف .

قال الشوكاني : قوله (فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا) المراد : بيان عموم الإنفاق للأوقات ، وتقديم السرّ على الجهر مشعر بفضيلته عليه ، وأن الثواب فيه أكثر.

(**هَلْ يَسْتَوُونَ**) أي: هل يستوي العَبدُ والحُرُّ الموصوفان بما تقَدَّمَ مِن الصِّفاتِ؟ فكذلك اللهُ الذي له المُلْكُ وبِيَدِه الرِّزقُ، المتصَرِّفُ في مُلكِه كما يشاءُ؛ لا يستوي مع المعبوداتِ العاجزةِ التي لا تَملِكُ شيئًا، ولا قُدرةَ لها على شَيءٍ، وأنتم تتَّخِذونَها شُرَكاءَ لله تعالى في عبادتِه، فكيف تُسَوُّونَ بينهما

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) حمد الله نفسه لأنه المستحق لجميع المحامد لأنه المنعم المتفضل على عباده ، وهو الخالق الرازق لا هذه الأصنام التي عبدها هؤلاء ، فإنها لا تستحق الحمد لأنها جماد عاجز ، لا يد لها على أحد ولا معروف ، فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله لا لغيره فيعجب على جميع العباد ، حمد الله لأنه أهل الحمد والثناء الحسن .

(**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**) أي : ولكنَّ أكثَرَ المشرِكينَ لا يَعلَمونَ أنَّ الله وَحْدَه هو المستحِقُّ للعبادةِ والشُّكرِ؛ فهم يَعبُدونَ ويَحمَدونَ غَيرَه لجَهلِهم .

قال القرطبي: ذكَرَ الأكثَرَ وهو يريدُ الجميع، فهو خاصٌّ أريدَ به التَّعميمُ. وقيل: أي: بل أكثَرُ الخَلقِ لا يَعلَمونَ؛ وذلك أنَّ أكثَرَهم المشرِكون .

الفوائد :

١. أن الأصنام لا تملك شيئاً .

٢. أن كل ما يعبد من دون الله عاجز ناقص .

٣. لله تعالى المثل الأعلى .

٤. أن الله له الصفات الحسنى ، فعلمه كامل ، وحياته كاملة .

٥. لا أحد يستطيع أن ينفع أو يضر إلا الله .

٦. وجوب حمد الله على رزقه وعلى صفاته الحسنى وكماله .

(**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)**) .

[النحل : ٧٦] .

==========

(**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ**) هذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة ، قال مجاهد : هذا مثل مضروبُ للوثن والحق تعالى ، فالوثنُ أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ، ولا يقدر على شيء بالكلية ، لأنه إما حجر أو شجر .

اختلف المفسرون في المثل المضروب بهذه الآية على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى، وهذا معنى قول قتادة.

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فالأبكم : الكافر ، والذي يأمر بالعدل : المؤمن ، قاله ابن عباس.

(**وهو كل على مولاه**) أي : ثقيل عَالَة على وليه أو سيده .

(**أينما يوجهه لا يأت بخير**) أي : حيثما أرسله سيده ، لا ينجح في مسعاه ، لأنه أخرس ، بليد ، ضعيف الفهم .

وصف تعالى وصف الرجل الأول بصفات :

الصفة الأولى : الأبكم .

الصفة الثانية : قوله : {لا يقدر على شيء} وهو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل.

والصفة الثالثة : قوله : {كل على مولاه} أي هذا الأبكم العاجز كل على مولاه : أي غليظ وثقيل على مولاه.

الصفة الرابعة : قوله : {أينما يوجهه لا يأت بخير} أي أينما يرسله (لا يأت بخير) معناه لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم.

(**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ**) أي : هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع .

(**وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**) يعني ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير .

(**وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) أي : (وهو) في نفسه (على صراط مستقيم) يعني على سيرة صالحة ودين قويم ، فيجب أن يكون الآمر بالعدل ، عالماً قادراً مستقيماً في نفسه حتى يتمكن من الأمر بالعدل ، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده من إنعامه ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه وللأصنام التي هي أموات جماد ، لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل ، وهي كل على عابديها ، لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة.

أي : هل يتساوى هذا الأخرص، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان، وهو على طريق الحق والاستقامة ، مستنير بنور القرآن؟ وإذا كان العاقل لا يسوى بين هذين الرجلين ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ؟ وبين الله سبحانه وهو القادر العليم ، الهادي إلى الصراط المستقيم .

قال ابن القيم : وأما المثل الثاني: فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة ، أينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، والله سبحانه حي قادر ، متكلم ، يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد .

الفوائد :

١-أن العاجز لا يكون إلهاً .

٢-أن القادر العليم السميع الرازق هو من يستحق العبادة .

٣-جُعِلَ نفيُ صفةِ الكَلامِ مُوجِبًا لبُطلانِ الإلهيَّةِ، وهذا أمرٌ معلومٌ بالفِطَرِ والعُقولِ السَّليمةِ والكُتُبِ: أنَّ فاقِدَ صِفاتِ الكَمالِ لا يكونُ إلهًا، ولا مُدَبِّرًا، ولا ربًّا، بل هو مَذمومٌ مَعيبٌ ناقِصٌ، ليس له الحَمدُ لا في الأُولى، ولا في الآخرةِ، وإنَّما الحَمدُ في الأُولى والآخِرةِ لِمَن له صِفاتُ الكَمالِ، ونُعوتُ الجَلالِ، التي لأجْلِها استحَقَّ الحَمدَ .

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)) .

[النحل : ٧٧] .

==========

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) بين تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْغَيْبِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَذَكَرَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

كَقَوْلِهِ (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ : أَنَّهُ يُطْلِعُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ وَحْيِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) أي: وما أمرُ قيامِ السَّاعةِ في سُرعةِ وُجودِها، وبَعثِ الخَلقِ وسُهولتِه إلَّا كنَظرةٍ سَريعةٍ مِن البَصَرِ أو هي أسرَعُ مِن ذلك .

أي : أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ الْإِتْيَانَ بِهَا فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي أَسْرَعِ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ : لِأَنَّهُ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ . وَيَدُلُّ لِهَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) .

وقال تعالى (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) .

والمراد بالساعة القيامة .

اللمح : النظر بسرعة يقال لمحه ببصره لمحاً ولمحاناً ، والمعنى : وما أمر قيام القيامة في السرعة إلا كطرف العين .

والساعة عند الإطلاق يراد بها يوم القيامة، لأن الساعة تطلق على عدة إطلاقات:

الإطلاق الأول: القيامة.

والساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)

الإطلاق الثاني: موت الإنسان.

فمن مات فقد قامت قيامته، لدخوله عالم البرزخ الذي هو أول عوالم الآخرة.

الإطلاق الثالث: تطلق أحياناً ويراد بها موت أهل القرن.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (كَانَ الأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ مَتَى السَّاعَةُ فَنَظَرَ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَقَالَ: إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ).

(**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) من إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وتغيير الشيء وتحويله ، لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك.

فلا يعجزه شيء سبحانه، كما قال تعالى (مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً).

الآية عامة، فالله على كل شيء قدير، على ما شاءه وما لم يشأه.

قال الشنقيطي: وجرت العادة بذكر قدرته عند الأمور التي لا يستطيعها البشر، كما ذكر ذلك عند نصره لعباده الضعفاء المتمسكين بدينه كقوله تعالى في الأحزاب (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) وقال في الحديبية (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً).

ومن قدرته أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الآية عامة، فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، وأما قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع، يعني: إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء.

الفوائد :

١. أن الله يعلم غيب السماوات والأرض .

٢. أن الله لا تخفى عليه خافية .

٣. وجوب الخوف من الله ، لأنه يعلم كل شيء .

٤. إثبات الساعة .

٥. أن كل شيء على الله سهل يسير .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) .

[النحل : ٧٨] .

==========

(**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا**) أي : والله- تعالى- وحده هو الذي أخرجكم- أيها الناس- من بطون أمهاتكم إلى هذه الحياة، وأنتم لا تعلمون شيئا لا من العلم الدنيوي ولا من العلم الديني، ولا تعرفون ما يضركم أو ينفعكم .

(**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) نعمة ثانية من نعمة الله- سبحانه- التي لا تحصى.

أي: أن من نعمة الله تعالى أنه أخرجكم من بطون أمهاتكم- بعد أن مكثتم فيها شهورا تحت كلاءته ورعايته- وأنتم لا تعرفون شيئا، وركب فيكم بقدرته النافذة، وحكمته البالغة، «السمع» الذي تسمعون به، والبصر الذي بواسطته تبصرون، «والأفئدة» التي عن طريقها تعقلون وتفقهون .

(**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) لعلكم بسبب كل هذه النعم التي أنعمها عليكم، تشكرونه حق الشكر، بأن تخلصوا له العبادة والطاعة، وتستعملوا نعمه في مواضعها التي وجدت من أجلها.

قال الشنقيطي : (لعَلَّ) لِلتَّعْلِيلِ . وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَلْ شَكَرُوا أَوْ لَمْ يَشْكُرُوا : وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ : أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَمْ يَشْكُرُوا : كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) .

وَقَالَ (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) .

قال ابن كثير : وَهَذِهِ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا كُلَّمَا كَبِرَ زِيدَ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعَقْلِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَإِنَّمَا جَعَلَ تَعَالَى هَذِهِ فِي الْإِنْسَانِ لِيَتَمَكَّنَ بِهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى، فَيَسْتَعِينُ بِكُلِّ جَارِحَةٍ وَعُضْوٍ وَقُوَّةٍ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ.

كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أفضل من أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ دَعَانِي لَأُجِيبَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ) .

فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْلَصَ الطَّاعَةَ صَارَتْ أَفْعَالُهُ كُلُّهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا لله، ولا يبصر إلا لله أَيْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلَا يَبْطِشُ وَلَا يَمْشِي إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وجل .

الفوائد :

١-علم ابن آدم علم ناقص مسبوق بجهل ويلحقه نسيان .

٢-علم الله علم كامل لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان.

قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى).

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً).

٣-من نعم الله علينا أن علمنا .

٤-يجب شكر الله على هذه النعم باستعمالها في طاعة الله .

٥-من استعمل هذه الجوارح بمعصية الله فإنه لم يشكر الله .

٦-أن اللَّهَ أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَقْلِ لِتَشْكُرَهُ ، وَهُوَ مُخْتَبِرُكَ بِذَلِكَ وَسَائِلُكَ عَنْهُ ، فَلَا تَسْتَعْمِلْ نِعَمَهُ فِي مَعْصِيَةٍ .

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون .

(أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)) .

[النحل : ٧٩] .

==========

(أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء) أي: ألم يَنظُرُوا إلى الطُّيورِ التي ذلَّلَ اللهُ لها الطَّيرانَ بأجنِحَتِها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ .

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ) أي: ما يُمسِكُ الطُّيورَ في الجوِّ إلَّا اللهُ بقُدرتِه .

كما قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أي: إنَّ في تَسخيرِ اللهِ الطُّيورَ للطَّيرانِ في جوِّ السَّماءِ- حيث خلَقَها اللهُ تعالى خِلقةً تَصلُحُ معها للطَّيرانِ، وخلَقَ هذا الهواءَ اللَّطيفَ بحيث يُمكِنُ الطيرانُ فيه، مع إمساكِها في الهواءِ على خلافِ طَبْعِها- لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه، وحِكمتِه وعِلْمِه، لِقَومٍ يُؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه .

الفوائد :

١-من دلائل قدرة الله وعظمته الطير في السماء لا يسقط .

٢-ينبغي التفكر في مخلوقات الله العجيبة التي تدل على قدرته ووحدانيته .

٣- فضل الإيمان .

٤- أن الإيمان كلما قوي قوي التفكر في مخلوقات الله .

٥- أن الإيمان سبب للتفكر والاعتبار والاتعاظ .

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)) .

[النحل : ٨٠-٨٣] .

==========

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) أي: واللهُ جعَل لكم- أيُّها النَّاسُ- مِن بُيوتِكم- كالتي مِن الحَجَرِ والمدَرِ والخَشَبِ- مساكِنَ لكم تَستَقِرُّونَ فيها، وتأوُونَ إليها، وتَستَتِرونَ بها، وتقيكم الحَرَّ والبَردَ، وغوائِلَ السِّباعِ والهَوامِّ ، وتنتَفِعونَ بها في غيرِ ذلك .

السكن ما سكنت إليه وما سكنت فيه.

قال صاحب "الكشاف" : السكن فعل بمعنى مفعول ، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو ألف.

قال الشوكاني : وهذا المذكور من جملة أحوال الإنسان ، ومن تعديد نعم الله عليه ، والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع. وهو بمعنى : مسكون ، أي : تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة ، وهذه نعمة ، فإن الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطرباً دائماً كالأفلاك ، ولو شاء لخلقه ساكناً أبداً كالأرض .

واعلم أن البيوت التي يسكن الإنسان فيها على قسمين :

القسم الأول : البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت ، وإليها الإشارة بقوله (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله ، بل الإنسان ينتقل إليه.

والقسم الثاني : القباب والخيام والفساطيط ، وإليها الإشارة بقوله (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان.

قال طلحة : أقل لعيب المرء أن يجلس في داره . رواه وكيع .

فوائد تقليل مخالطة الناس :

تقليل العيوب الذاتية (العجب الغرور الاحتقار) .

تقليل العيوب المتعدية (البطش العدوان) .

(**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا**) أي : وجعل لكم بيوتا أُخرى وهى الخيام والقُباب ، المتخذة من الشعر والصوف والوبَر

قال الشوكاني : لما ذكر سبحانه بيوت المدن ، وهي التي للإقامة الطويلة ، عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة ، أي : جعل لكم من جلود الأنعام ، وهي الأنطاع والأدم بيوتاً كالخيام والقباب .

(**تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ**) أي : تستخفُون حملها ونقلها في أسفاركم ، وهي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضَر .

قال الشوكاني : أي يخفّ عليكم حملها في الأسفار وغيرها ، ولهذا قال : (يَوْمَ ظَعْنِكُمْ) والظعن بفتح العين وسكونها ، وقرئ بهما : سير أهل البادية للانتجاع والتحوّل من موضع إلى موضع .

(**وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا**) قال المفسرون وأهل اللغة : الأصواف للضأن والأوبار للإبل والأشعار للمعز.

أثاثاً : ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم .

قال ابنُ كثير: (أَثَاثًا) أي: تتَّخِذون منه أثاثًا، وهو المال. وقيل: المتاعُ. وقيل: الثيابُ، والصحيحُ أعَمُّ من هذا كلِّه؛ فإنَّه يُتَّخَذُ من الأثاث البُسُطُ والثيابُ وغير ذلك، ويُتَّخَذُ مالًا وتجارةً .

وقال السعدي: وهذا شامِلٌ لكُلِّ ما يُتَّخَذُ منها؛ مِن الآنيةِ والأوعيةِ والفُرُشِ والألبِسةِ والأجِلَّةِ، وغيرِ ذلك .

وقال ابن عاشور: والأَثاثُ- بفتح الهمزة- اسمُ جمعٍ للأشياء التي تُفرَشُ في البيوت من وسائِدَ وبُسُطٍ وزرابيَّ، وكلُّها تُنسَجُ أو تُحشى بالأصواف والأشعار والأوبار، والمتاع أعمُّ مِن الأثاث .

(**وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**) **قيل**: معنى إِلَى حِينٍ: أي: إلى انقضاءِ آجالِهم بالموتِ.

وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ.

وقيل: المرادُ: إلى وقتٍ غيرِ معينٍ، بحسبِ كلِّ إنسانٍ في فقدِ ذلك.

وممن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيةَ ، والقرطبي، والبقاعي.

قال ابن عطية : (إِلَى حِينٍ) يريدُ به وقتًا غيرَ مُعيَّنٍ، وهو بحسَبِ كُلِّ إنسانٍ، إمَّا بموتِه، وإمَّا بفقد تلك الأشياءِ التي هي أثاثٌ.

وقيل : إلى حين البلا .

وقيل : إلى يوم القيامة.

قال ابن كثير: (إِلَى حِينٍ) أي: إلى أجَلٍ مُسمًّى ووقتٍ معلوم .

وقال الزمخشري: (إِلَى حِينٍ) إلى أن تقضُوا منه أوطارَكم، أو إلى أن يَبلَى ويفنَى، أو إلى أن تموتوا .

(**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً**) أي : جعل لكم من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ، ظلالا تتقون بها حر الشمس ، وذلك لأن المسافر إذا لم يكن له خيمة يستظل بها فإنه لا بد وأن يستظل بشيء آخر كالجدران والأشجار وقد يستظل بالغمام كما قال (وظللنا عليكم الغمام) .

قال الشوكاني : ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام ، أو أبنية يستظل بها لفقر ، أو لعارض آخر ، فيحتاج إلى أن يستظلّ بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك ، نبه سبحانه على ذلك فقال (وَجَعَلَ لَكُمُ مِّمَّا خَلَقَ ظلالا) أي : أشياء تستظلون بها كالأشياء المذكورة ، والحاصل : أن الظلال تعم الأشياء التي تظلّ.

قال ابنُ عطية : نِعَمٌ عَدَّدَها اللهُ عليهم بحسَبِ أحوالِهم وبلادِهم، وأنَّها الأشياءُ المباشِرةُ لهم؛ لأنَّ بلادَهم مِن الحرارةِ وقَهرِ الشَّمسِ بحيثُ للظِّلِّ غَناءٌ عَظيمٌ، ونَفعٌ ظاهِر .

(**وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا**) أي : وجعل لكم في الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون ، قال الرازي : لما كانت بلادُ العرب شديدة الحر ، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة ، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة .

(**وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ**) أي : ثياباً وملابس من القطن والكتان والصوف وغير ذلك .

سرابيل : جمع سربال ، وهي : القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها.

قال الزجاج : كل ما لبسته فهو سربال.

(**تَقِيكُمُ الْحَرَّ**) أي : تقيكم حر الشمس .

وَقَدْ بَيَّنَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْكُبْرَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ : كَقَوْلِهِ (يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا) .

وَقَوْلِهِ (يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) ، أَيْ : وَتِلْكَ الزِّينَةُ هِيَ مَا خَلَقَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ اللِّبَاسِ الْحَسَنِ .

فإن : لماذا لم يذكر البرد ؟

قيل : ذكرت في أول السورة .

وقيل : إنه ذكر الأهم باعتبار أن أول من خوطب بالقرآن هم العرب، وكانت بلادهم حارة، واشتهرت بذلك، فهم بحاجة إلى ما يقيهم من حر الشمس .

وقيل : هذا من باب الاكتفاء، أي أنه ذكر أحد القبيلين ليدل به على الآخر، والتقدير "سرابيل تقيكم الحر والبرد."

فإن قيل : لم ذكر الحر ولم يذكر البرد ؟

أجابوا عنه من وجوه :

الوجه الأول : قال عطاء الخراساني : المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت حاجتهم إلى ما يدفع الحر فوق حاجتهم إلى ما يدفع البرد .

والوجه الثاني : في الجواب قال المبرد: إن ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر، قلت ثبت في العلوم العقلية أن العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر، فإن الإنسان متى خطر بباله الحر خطر بباله أيضاً البرد، وكذا القول في النور والظلمة والسواد والبياض.

قال البيضاوي : (تَقِيكُمُ الحر) خصه بالذكر اكتفاء بأحد الضدين أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم.

وقال الشوكاني : ومعنى (تَقِيكُمُ الحر) تدفع عنكم ضرر الحرّ ، وخصّ الحرّ ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر ، لأن ما وقى من الحرّ وقى من البرد.

ووجه تخصيص الحرّ بالذكر أن الوقاية منه كانت أهمّ عندهم من الوقاية من البرد لغلبة الحرّ في بلادهم .

(**وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ**) أي : وجعل لكم دروعاً تشبه الثياب تتقون بها شر أعدائكم .

قال الشنقيطي : الْمُرَادُ بِهَا الدُّرُوعُ وَنَحْوُهَا ، مِمَّا يَقِي لَابِسَهُ وَقْعَ السِّلَاحِ ، وَيُسَلِّمُهُ مِنْ بَأْسِهِ . .

وَقَدْ بَيَّنَ أَيْضًا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْكُبْرَى ، وَاسْتِحْقَاقَ مَنْ أَنْعَمَ بِهَا لِأَنْ يُشْكَرَ لَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ : كَقَوْلِهِ (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) وَإِطْلَاقُ السَّرَابِيلِ عَلَى الدُّرُوعِ وَنَحْوِهَا مَعْرُوفٌ . وَمِنْهُ قَوْلُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

شُمُّ الْعَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

(**كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ**) أَيْ : هَكَذَا يَجْعَلُ لَكُمْ مَا تَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى أَمْرِكُمْ وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لِيَكُونَ عَوْنًا لَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ هَكَذَا فَسَّرَهُ الْجُمْهُورُ، وَقَرَءُوهُ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنْ تُسْلِمُونَ أَيْ مِنَ الْإِسْلَامِ.

(**فَإِن تَوَلَّوْاْ**) أَيْ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الِامْتِنَانِ، فَلَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

(**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**) وَقَدْ أَدَّيْتَهُ إِلَيْهِمْ .

(**يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا أَيْ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُسْدِي إِلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ وَمَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَيُسْنِدُونَ النَّصْرَ وَالرِّزْقَ إِلَى غَيْرِهِ .

وَقَدْ أَوْضَحَ – جَلَّ وَعَلَا – هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

كَقَوْلِهِ (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

فَقَوْلُهُ (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) دَلِيلٌ عَلَى مَعْرِفَتِهِمْ نِعْمَتَهُ . وَقَوْلُهُ (فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) دَلِيلٌ عَلَى إِنْكَارِهِمْ لَهَا . وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وقيل : يعرفون نعمة الله هي محمد ﷺ عرفوا نبوته ثم جحدوها وكذبوه .

وَقَدْ بَيَّنَ – جَلَّ وَعَلَا – : أَنَّ بَعْثَةَ نَبِيِّهِ ﷺ فِيهِمْ مِنْ مَنِّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ الْآيَةَ) .

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : أَنَّهُمْ قَابَلُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِالْكُفْرَانِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) .

وَقِيلَ : يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي الشِّدَّةِ ، ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا فِي الرَّخَاءِ . وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) ، وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي الْآيَةِ .

(**وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**) قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ كَافِرُونَ . أَطْلَقَ الْأَكْثَرَ وَأَرَادَ الْكُلَّ . قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ وَالشَّوْكَانِيُّ .

وقَالَ الشَّوْكَانِيُّ : أَوْ أَرَادَ بِالْأَكْثَرِ الْعُقَلَاءَ دُونَ الْأَطْفَالِ وَنَحْوِهِمْ . أَوْ أَرَادَ كُفْرَ الْجُحُودِ ، وَلَمْ يَكُنْ كُفْرُ كُلِّهِمْ كَذَلِكَ ، بَلْ كَانَ كُفْرُ بَعْضِهِمْ كُفْرَ جَهْلٍ .

الفوائد :

١. تعداد نعم من نعم الله على عباده .

٢. نعمة السكن في البيت .

٣. عظم نعمة الله على عباده حيث هيأ لهم ما يسكنون فيه حتى في البر أو السفر .

٤. من نعم الله أنه سخر من الأنعام الفرش والزرابي وأنواع الأثاث .

٥. كل شيء له منتهى .

٦. كتب الله الموت على كل أحد .

٧. رحمة الله بعباده في وجود الظل .

٨. من نعم الله العظيمة : الملابس وقاية من الحر ، والدروع التي تقي شر الأعداء .

٩. وجوب شكر نعمة الله على عباده .

١٠. ليس على الرسول إلا البلاغ .

١١. أن مهمة الرسل الدعوة وتبيين طريق الحق .

١٢. أن الهداية بيد الله .

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ (٨٨)) .

[النحل : ٨٤-٨٨] .

==========

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ يَبْعَثُ من كل أمة شهيدا وَهُوَ نَبِيُّهَا، يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا أَجَابَتْهُ فِيمَا بَلَّغَهَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى

(ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ) أَيْ فِي الِاعْتِذَارِ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بطلانه وكذبه، كَقَوْلِهِ (هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ).

قال الشنقيطي : لَمْ يُبَيِّنْ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مُتَعَلِّقَ الْإِذْنِ فِي قَوْلِهِ (لَا يُؤْذَنُ) وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي (الْمُرْسَلَاتِ) أَنَّ مُتَعَلِّقَ الْإِذْنِ الِاعْتِذَارُ، أَيْ: لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي الِاعْتِذَارِ، لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ يَصِحُّ قَبُولُهُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) .

وقال الخازن : قوله تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) يعني في الاعتذار ، وقيل لا يؤذن لهم في الكلام أصلاً ، وقيل لا يؤذن لهم بالرجوع إلى دار الدنيا فيعتذروا ويتوبوا وقيل : لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك .

(وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) تيئيس آخر لهم في الحصول على شيء من رحمة الله- تعالى-. أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار، ولا يقبل منهم أن يزيلوا عتب ربهم ، أي : غضبه وسخطه عليهم، لأن العتاب إنما يطلب لأجل معاودة الرضا من العاتب، وهؤلاء قد انسد عليهم هذا الطريق، لأن الله- تعالى- قد سخط عليهم سخطا لا مجال لإزالته، بعد أن أصروا على كفرهم في الدنيا وماتوا على ذلك.

قال القرطبي : قوله (وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) يعني يسترضون ، أي لا يكلفون أن يرضوا ربّهم ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون.

وأصل الكلمة من العَتْب وهي المَوْجدة ؛ يقال : عَتَب عليه يعتُب إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه ما عَتَب عليه فيه قيل عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرّتك فقد أعتَب ، والاسم العُتبى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتبَ .

قال أبو السعود (وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) يُسترضَون أي لا يقال لهم : ارضُوا ربكم إذ الآخرةُ دارُ الجزاء لا دارُ العمل .

(وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ) أي : الذين أشركوا .

(الْعَذَابَ) الأليم الشديد .

(**فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ**) أَيْ : لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً.

(**وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ**) أي : لَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ بَلْ يَأْخُذُهُمْ سَرِيعًا .

قال الشنقيطي : ذَكَرَ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا رَأَوُا الْعَذَابَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ، وَلَا يُنْظَرُونَ أَيْ لَا يُمْهَلُونَ ، وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ . وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ النَّارَ وَأَنَّهَا تَرَاهُمْ ، وَأَنَّهَا تَكَادُ تَتَقَطَّعُ مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ عَلَيْهِمْ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) .

وَقَوْلِهِ (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) .

وَقَوْلِهِ (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) .

وَقَوْلِهِ (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) .

وَقَوْلِهِ (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

(**وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ**) أَيِ : الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا .

(**قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ**) أي : هؤلاء الذين عبدناهم من دونك .

قال البيضاوي : هذا اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك والتماس لتخفيف العذاب .

(**فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ**)أيْ قَالَتْ لَهُمُ الْآلِهَةُ: كَذَبْتُمْ مَا نَحْنُ أَمَرْنَاكُمْ بِعِبَادَتِنَا .

فهذه حكاية لما رد به الشركاء على المشركين. أي: فرد أولئك الشركاء من الأصنام وغيرها على المشركين بقولهم: إنكم لكاذبون– أيها المشركون– في إحالتكم الذنب علينا، فإننا ما دعوناكم لعبادتنا، ولا أجبرناكم على الإشراك بالله– تعالى–، ولكنكم أنتم الذين اخترتم هذا الطريق المعوج تقليدا لآبائكم واستجابة لأهوائكم وشهواتكم، وإيثارا للباطل على الحق .

قال القرطبي: وقوله تعالى (فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ ..) أي : ألقت إليهم الآلهة القول، أي : نطقت بتكذيب من عبدها. بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار .

وقال الجمل: فإن قلت: كيف أثبت للأصنام نطقا هنا، ونفاه عنها في قوله– تعالى– في سورة الكهف (وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) .

فالجواب: أن المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم لها، والمنفي عنهم في الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافي .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) .

وَقَوْلِهِ (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وَقَوْلِهِ (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) .

وقوله (وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) .

وَقَوْلِهِ (فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

(**وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ**) قالَ قَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: ذَلُّوا وَاسْتَسْلَمُوا يَوْمَئِذٍ، أَيِ اسْتَسْلَمُوا لِلَّهِ جَمِيعِهِمْ فَلَا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تَعَالَى (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا) أَيْ مَا أَسْمَعَهُمْ وَمَا أَبْصَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ .

وَقَالَ (وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا) .

وَقَالَ (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) .

أَيْ خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

(**وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**) أَيْ : ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ فَلَا نَاصِرَ لهم ولا معين ولا مجير.

(**الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ**) أَيْ عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَذَابًا عَلَى صَدِّهِمُ الناس عن اتباع الحق .

كقوله تَعَالَى (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) . أَيْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَيَبْتَعِدُونَ هُمْ مِنْهُ أَيْضًا وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ .

فقوله (زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) فَإِنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ مِنَ الْعَذَابِ لِأَجْلِ إِضْلَالِهِمْ غَيْرَهُمْ . وَالْعَذَابُ الْمَزِيدُ فَوْقَهُ : هُوَ عَذَابُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ : بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي الْمُضِلِّينَ الَّذِينَ أَضَلُّوا غَيْرَهُمْ (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) وَقَوْلُهُ : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) .

الْقَرِينَةُ الثَّالِثَةُ ، قَوْلُهُ (بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُفْسِدُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ مَعَ ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَقَوْلِهِ (فَوْقَ الْعَذَابِ) ، أَيْ : الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ .

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَفَاوُتِ الْكُفَّارِ فِي عَذَابِهِمْ كَمَا يَتَفَاوَتُ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ودرجاتهم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لَا تَعْلَمُونَ .

قال الرازي : قوله تعالى (بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ) أي هذه الزيادة من العذاب إنما حصلت معللة بذلك الصد ، وهذا يدل على أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال فقد عظم عذابه ، فكذلك إذا دعا إلى الدين واليقين ، فقد عظم قدره عند الله تعالى .

الفوائد :

١. إثبات البعث .

٢. إقامة الشهود على المشركين يوم القيامة .

٣. أن يوم القيامة لا اعتذار ، لأنه فات الوقت .

٤. أن الظلم سبب للعذاب الأليم وأعظم الظلم الشرك بالله .

٥. أن الكفار يوم القيامة لا يخفف عنهم العذاب ولا يُمهلون .

٦. من أنواع عذاب الكفار يوم القيامة تبرؤ الأصنام من عابديها .

٧. التخاصم بين أهل النار .

٨. يوم القيامة تظهر الحقائق .

٩. تفاوت الكفار في العذاب .

١٠. أن الكافر الداعية أشد عذاباً من غير الداعية .

(**يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)**) .

[النحل : ٨٩] .

==========

(**يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ**) وهم الأنبياء ، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعَوْهم إلى الإيمان ، في كل زمان شهيد وإن لم يكن نبياً ؛ وفيهم قولان :

أحدهما أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء.

الثاني أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه. (القرطبي) .

قال ابن عطية : هذه الآية في ضمنها وعيد ، والمعنى واذكر يون نبعث في كل أمة شهيداً عليها ، وهو رسولها الذي شاهد في الدنيا تكذيبها وكفرها ، وإيمانها وهداها ، ويجوز أن يبعث الله شهيداً من الصالحين مع الرسل ، وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحداً على معصية فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيداً عليه يوم القيامة .

وقال الخازن : قال المفسرون : كل نبي شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) يعني منهم لأن كل نبي إنما بعث من قومه الذين بعث إليهم ليشهدوا عليهم وبما فعلوا من كفر وإيمان وطاعة وعصيان .

قال أبو السعود : (مّنْ أَنفُسِهِمْ) من جنسهم قطعاً لمعذرتهم وفي قوله تعالى : { عَلَيْهِمْ } إشعارٌ بأن شهادةَ أنبيائِهم على الأمم تكون بمحضر منهم .

قوله تعالى (**شَهِيدًا عَلَيْهِم**) قيل : يشهدُ عليهم بما أجابوه وردُّوا عليه.

وممن قال ذلك: ابنُ جريرٍ.

وقيل: المعنى: يشهدُ عليهم بأنَّهم بلَّغوا الرسالةَ، ودعَوْهم إلى الإيمانِ.

قال السعدي : وهذا مِن كَمالِ عَدلِ الله تعالى: أنَّ كُلَّ رَسولٍ يَشهَدُ على أمَّتِه؛ لأنَّه أعظَمُ اطِّلاعًا مِن غيرِه على أعمالِ أمَّتِه، وأعدَلُ وأشفَقُ مِن أن يشهَدَ عليهم إلَّا بما يَستَحِقُّون .

(**وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء**) أي: وجِئْنا بك يومَ القيامةِ شاهِدًا على أمَّتِك .

كما قال تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) .

(**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه نزل على رسوله هذا الكتاب العظيم تبياناً لكل شيء. وبين ذلك في غير هذا الموضع :

كقوله تعالى (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ) على القول بأن المراد بالكتاب فيها القرآن. أما على القول بأنه اللوح المحفوظ. فلا بيان بالآية.

وعلى كل حال فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء. والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه. وهي قوله تعالى (وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا) .

(**وَهُدًى**) أي: بيان ودلالة، أي: أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

(**وَرَحْمَةً**) فإن العمل بكتاب الله رحمة وهداية ونور للبشرية، وبها تحصل السعادة والخير الكثير.

كما قال تعالى: (وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا).

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

(**وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**) وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين .

كما قال تعالى: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ) وقال تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).

قال ابن عاشور: والبشرى الإخبار بحصول أمر سار أو بترقب حصوله، فالقرآن بشر المؤمنين بأنهم على هدى وكمال ورضى من الله تعالى وبشرهم بأن الله سيؤتيهم خير الدنيا وخير الآخرة.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن هذا القرآن العظيم هدى ورحمة وبشرى للمسلمين. ويفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة – أي مفهوم مخالفتها – : أن غير المسلمين ليسوا كذلك. وهذا المفهوم من هذه الآية صرح به جل وعلا في مواضع أخر : كقوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

وقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً) .

وقوله جل وعلا (وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ) .

وقوله (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً) .

قال ابن عاشور : وخصّ بالذّكر الهدى والرحمة والبُشرى لأهميتها ؛ فالهدى ما يرجع من التّبيان إلى تقويم العقائد والأفهام والإنقاذ من الضلال.

والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى ، والبُشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين الدنيوية والأخروية.

وكل ذلك للمسلمين دون غيرهم لأن غيرهم لما أعرضوا عنه حَرموا أنفسهم الانتفاع بخواصّه كلها.

الفوائد :

١. إثبات البعث .

٢. عدل الله تعالى .

٣. أن كل نبي شهيد على أمته .

٤. أن القرآن منزل .

٥. أن القرآن بيان لكل شيء .

(**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)**) .

[النحل : ٩٠] .

==========

(**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**) أي: إنَّ اللهَ يأمُرُ عِبادَه بالإنصافِ، وأداءِ حُقوقِ الله تعالى، وحُقوقِ عبادِه .

والعدل : إعطاء كل ذي حق حقه .

وفي الآية وجوب العدل، ومما يدل على ذلك:

قوله تعالى (إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان).

وقال (وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى).

وقال (يا داوود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِي الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق).

وعن الحسن قال: ان الله أخذ على الحكام ثلاثاً: أن لا يتبعوا الهوى، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً.

ومما يدل على وجوب العدل الآيات الواردة في مذمة الظلم:

كقوله تعالى (احشروا الذين ظَلَمُوا وأزواجهم).

وقال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون).

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا).

وقال ﷺ (إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، ولزورك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه

فضائل العدل:

أولاً: محبة الله.

قال تعالى (وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ).

ثانياً: علو المنزلة، فهم عن يمين الرحمن.

قال ﷺ (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا) رواه مسلم.

ثالثاً: أن الله أمر به.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون).

رابعاً: من الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة إمام عادل.

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ...) متفق عليه.

قال ابن رجب: وأول هذه السبعة: الإمام العادل: وهو أقرب الناس من الله يوم القيامة، وهو على منبر من نور على يمين الرحمن، وذلك جزاء لمخالفته الهوى، وصبره عن تنفيذ ما تدعوه إليه شهواته وطمعه وغضبه، مع قدرته على بلوغ غرضه من ذلك؛ فإنَّ الإمام العادل دعته الدنيا كلها إلى نفسها، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، وهذا أنفع الخلق لعباد الله، فإنه إذا صلح صلحت الرعية كلها، وقد رُوي أنَّه ظلُّ الله في الأرض؛ لأنَّ الخلق كلَّهم يستظلون بظلِّه، فإذا عدل فيهم أظلَّه الله في ظلِّه.

وقال ابن حزم: أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحقِّ وإيثاره.

وقال ابن تيمية: العدل نظام كلِّ شيء، فإذا أُقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة.

وقال أيضاً: وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

– العدل له صور كثيرة::

عدل الوالي:

العدل في الحكم بين الناس:

قال تعالى (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ).

العدل مع الزوجة أو بين الزوجات:

قال تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا).

العدل بين الأبناء:

قال ﷺ (.... فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) متفق عليه.

ويكون العدل بين الأولاد في العطية، والهبة، والوقف، والتسوية بينهم حتى في القُبَل،

فعن إبراهيم النخعي قال: (كانوا يستحبون أن يعدل الرجل بين ولده حتى في القُبَل).

العدل في القول:

فلا يقول إلا حقًّا، ولا يشهد بالباطل، قال تعالى (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

وقال سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ).

العدل في الكيل والميزان:

قال تعالى (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ).

العدل مع غير المسلمين:

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

(**وَالإِحْسَانِ**) أي : ويأمُرُ بالإحسانِ في عبادتِه، والإحسانِ إلى خَلْقِه .

وقد تقدم الكلام على الإحسان .

والإحسان أوسع مدلولا من العدل: لأنه إذا كان العدل معناه: أن تعطى كل ذي حق حقه، بدون إفراط أو تفريط، فإن الإحسان يندرج تحته أن تضيف إلى ذلك: العفو عمن أساء إليك، والصلة لمن قطعك، والعطاء لمن حرمك.

قال تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ).

أجاز الله وأباح الانتصار من الظالم، وأشار سبحانه وتعالى إلى أن العفو أفضل وذلك في عدة مواطن:

قال تعالى (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ).

فقوله تعالى (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) عدل وقوله تعالى (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) إرشاد إلى الإحسان والعفو.

وقال تعالى (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) فالإحسان هنا العفو على رأي كثير من العلماء.

(**وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى**) أي : كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة، ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر.

وهم قرابات الرجل، وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث (الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة) رواه الترمذي، فهم أولى الناس بك وببرك وإحسانِك، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز.

هي مندرجة في العدل والإحسان وخصها- سبحانه- بالذكر اهتماما بأمرها، وتنويها بشأنها، وتعظيما لقدرها.

قال ابن العربي : وَإِنَّمَا خَصَّ ذَوِي الْقُرْبَى؛ لِأَنَّ حُقُوقَهُمْ أَوْكَدُ، وَصِلَتَهُمْ أَوْجَبُ، لِتَأْكِيدِ حَقِّ الرَّحِمِ الَّتِي اشْتَقَّ اللَّهُ اسْمَهَا مِنْ اسْمِهِ، وَجَعَلَ صِلَتَهَا مِنْ صِلَتِهِ.

قال تعالى (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ). وقال تعالى (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ...) .

قال القرطبي : وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوْكد وصلتهم أوجب ؛ لتأكيد حق الرّحِم التي اشتق الله اسمها من اسمه ، وجعل صلتها من صلته ، فقال في الصحيح : " أمَا تَرْضَيْن أن أصِل من وصلك وأقطعَ من قطعك " ولا سِيّما إذا كانوا فقراء.

(**وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء**) الفحشاء: كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل. وخصها بعضهم بالزنا.

– والفاحشةَ في لغةِ العربِ أنها كُلُّ خصلةٍ متناهيةٍ في القبحِ تُسَمِّيهَا العربُ فاحشة، وكلُّ شيءٍ بالغٍ نهايتَه تُسَمِّيهِ العربُ فاحشاً.

والفحشاء تطلق على ما فحش من المعاصي كالزنا واللواط ونكاح المحارم.

قال تعالى (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) يراد بالفاحشة هنا الزنا.

وقال تعالى (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) المراد بها هنا اللواط.

وقال تعالى (وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً).

في اللواط قال تعالى (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) .

(**والمنكر**) المنكر: كل ما أنكره الشرع بالنهى عنه، فيعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها.

(**وَالْبَغْيِ**) البغي: هو تجاوز الحد في كل شيء يقال: بغى فلان على غيره، إذا ظلمه وتطاول عليه.

أي: كما أمركم– سبحانه– بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، فإنه– تعالى– ينهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر، وعن كل تجاوز لما شرعه الله– عز وجل–.

وذلك لأن هذه الرذائل ما شاعت في أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا، وأمرها فرطا، والفطرة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه الرذائل، لأنها تتنافى مع العقول السليمة، ومع الطباع القويمة.

(**يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) أي: يُذَكِّرُكم اللهُ– أيُّها النَّاسُ– بما يأمُرُكم به، وما يَنهاكم عنه؛ لأجلِ أن تتَذَكَّروه فتَتُوبوا إليه، وتَمتَثِلوا أوامِرَه، وتَجتَنِبوا نواهِيَه .

الفوائد :

١. وجوب العدل .

٢. فضل العدل .

٣. تحريم الظلم .

٤. فضل الإحسان في كل شيء .

٥. الحث على الإحسان .

٦. الحث على صلة القرابة وإعانتهم بما يقدر عليه .

٧. تحريم العقوق .

٨. تحريم الفواحش .

٩. تحريم الزنا .

١٠. كل ما نهى عنه الشرع فهو منكر .

١١. تحريم الاعتداء على الناس والبغي عليهم .

وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) [النحل : ٩١] .

==========

(**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ**) أي : إن الله يأمركم- أيها المسلمون- بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ويأمركم- أيضاً- بالوفاء بالعهود التي التزمتم بها مع الله- تعالى- أو مع الناس.

والآيات التي وردت في وجوب الوفاء بالعهود كثيرة :

ومن ذلك قوله تعالى (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً) .

وخص- سبحانه- الأمر بالوفاء بالعهد بالذكر- مع أنه داخل في المأمورات التي اشتملت عليها الآية السابقة كما أشار إلى ذلك القرطبي في كلامه السابق- لأن الوفاء بالعهود من آكد الحقوق وأوجبها على الإنسان.

وقوله تعالى (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) .

و عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان) .

(**وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**) تأكيد للأمر بالوفاء، وتحذير من الخيانة والغدر.

والنقض في اللغة: حقيقة في فسخ ما ركب بفعل يعاكس الفعل الذي كان به التركيب.

واستعمل هنا على سبيل المجاز في إبطال العهد.

والأيمان: جمع يمين. وتطلق بمعنى الحلف والقسم. وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه، ووضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه.

أي: كونوا أوفياء بعهودكم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، أي: بعد توثيقها وتغليظها عن طريق تكرارها بمرة ومرتين، أو عن طريق الإتيان فيها ببعض أسماء الله- تعالى- وصفاته.

وقوله تعالى (بَعْدَ تَوْكِيدِها) للإشعار بأن نقض الأيمان وإن كان قبيحاً في كل حالة، فهو في حالة توكيد الأيمان وتغليظها أشد قبحاً.

(**وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً**) أي: لا تَنقُضوا عُهودَكم المؤَكَّدةَ باليمينِ، فتَحْنَثوا فيها، وقد جعَلْتُم اللهَ عليكم حَفيظًا وشَهيدًا ومتكَفِّلًا بوفائِكم بالعُهودِ، فيَكونَ ذلك منكم تَرْكًا لتعظيمِ اللهِ واستهانةً به .

(**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**) أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ كُلَّ ما تَفعَلونَه، ومِن ذلك وفاؤُكم بالعُقودِ ونَقضُها، وسيُجازي كلَّ عامِلٍ بعَمَلِه .

الفوائد :

١. وجوب الوفاء بالعهود .

٢. وجوب تعظيم أحكام الله .

٣. تحريم نقض العهد .

٤. تهديد للناقضين عهودهم بأن الله عليم بكل شيء .

٥. عموم علم الله تعالى .

(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)) .

[النحل : ٩٢ – ٩٣] .

==========

(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا....) شبَّهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتِله مُحْكَماً ثم تَحُلّه.

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) أي: تَجعَلونَ أيمانَكم وسيلةً للغَدرِ والمكرِ بمَن عاهَدْتُموهم، فتحلفونَ لهم؛ ليَطمئنُّوا إليكم، وتَعقِدونَ معهم العُهودَ، وأنتم مُضمِرونَ نَقْضَها إن وجَدْتُم قومًا آخرينَ أكثرَ منهم عددًا أو قُوَّةً أو غِنًى؛ طلبًا للدُّنيا، فإذا أمكنَكم الغدرُ بهم غَدَرتُم .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى قاله مجاهد فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالاً فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين.

والمقصود النّهْي عن العَوْد إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم.

وقال الفراء : المعنى لا تغدِروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عززتموهم بالأيمان.

قال السعدي: لا تنبغي هذه الحالةُ منكم؛ تَعقِدونَ الأيمانَ المؤَكَّدةَ وتَنتَظِرونَ فيها الفُرَصَ، فإذا كان العاقِدُ لها ضعيفًا غيرَ قادرٍ على الآخَرِ أتمَّها، لا لتعظيمِ العَقدِ واليَمينِ، بل لِعَجزِه، وإن كان قويًّا يرى مَصلحتَه الدُّنيويَّةَ في نَقْضِها، نَقَضَها غيرَ مُبالٍ بعَهدِ اللهِ ويَمينِه. كُلُّ ذلك دَوَرانًا مع أهواءِ النُّفوسِ، وتقديمًا لها على مُرادِ اللهِ منكم، وعلى المروءةِ الإنسانيَّةِ، والأخلاقِ المرْضيَّةِ؛ لأجلِ أن تكونَ أمَّةٌ أكثَرَ عددًا وقُوَّةً مِن الأخرى .

(إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ) يعني يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو أعلم بكم .

وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) يعني في الدنيا فيثيب الطائع المحق ، ويعاقب المسيء الخالف .

(وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي: ولو شاء اللهُ لجعَلَكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- على مِلَّةٍ واحدةٍ؛ مِلَّةِ الإسلامِ، دونَ حُدوثِ اختلافٍ أو تفَرُّقٍ بينَكم .

كما قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) .

وقال سُبحانه (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) .

وقال عزَّ وجَلَّ (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) .

(وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء) أي: ولكِنَّ اللهَ بحِكمَتِه خالَفَ بينَكم، فجعَلَكم أهلَ مِلَلٍ شَتَّى مُختَلِفةٍ، يخذُلُ مَن يشاءُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، فيَحرِمُ تَوفيقَه مَن لا يستَحِقُّ؛ عدلًا منه سُبحانه، ويوفِّقُ مَن يشاءُ، فيهدي للحَقِّ مَن يستَحِقُّ؛ فضلًا منه سُبحانه.

كما قال عزَّ وجلَّ (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) .

وقال تعالى (مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم) .

(**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) أي: وليَسألَنَّكم اللهُ جميعًا- أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فيُجازيكم على أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها .

الفوائد :

١. تحريم نقض العهد .

٢. على الإنسان أن يستمر على ما اعتاده من خير ولا يقطعه .

٣. وجوب مراقبة الله عند أخذ العهود .

٤. العهود والمواثيق كلها ابتلاء من الله لينظر من يصبر عليها ومن ينقضها .

٥. حكمة الله في جعْل الناس مسلم وكافر .

(**وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)**).

[النحل : ٩٤] .

==========

(**وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ**) أي : لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكراً تغرون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا .

(**دَخَلاً**) الدّخَل الدغل والخديعة والغش .

(**فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا**) أي : فتَنْحَرِفَ أقدامُكم بعد أن كانت ثابتةً على الدِّينِ وصِراطِ اللهِ المستقيمِ، فتَهلِكوا .

(**وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**) أي : ويَحُلَّ بكم العَذابُ في الدُّنيا؛ بسبَبِ إعراضِكم، وصَدِّكم النَّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ، حين تَخدَعونَهم بالحَلِفِ الكاذِبِ، وتَغدِرونَ عَهْدَكم معهم، فلا يبقَى لهم وُثوقٌ في دينِ اللهِ سُبحانَه

ممن قال: إنَّ المرادَ هنا أنَّهم صدُّوا غيرَهم: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكي، والخازن، وابنُ كثيرٍ.

قال الخازن : قوله تعالى (بما صددتم عن سبيل الله) يعني بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لأن من نقض العهد ، فقد علّم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك .

(**وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) أي: ولكم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ .

قال القرطبي : هذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من عاهده ثم نقض عهده خرج عن الإيمان .

قال الخازن : قال المفسرون : وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام نهاهم عن نقض عهده ، لأن الوعيد الذي بعده وهو قوله سبحانه وتعالى : فنزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد غيره ، إنما يليق بنقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به وبشريعته وقوله {فتزل قدم بعد ثبوتها} مثل يذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة أو سقط في ورطة بعد سلامة.

وقال الشوكاني : قال الواحدي : قال المفسرون : وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين.

واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) من المبالغة ، وبما في قوله (وَتَذُوقُواْ السوء بِمَا صَدَدتُّمْ) لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صدّوا غيرهم عن الدخول في الإسلام.

وعلى تسليم أن هذه الأيمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سبب نزول هذه الآية ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. (فتح القدير) .

الفوائد :

١. تحريم اتخاذ الإيمان خديعة وغشاً .

٢. وجوب الوفاء بالعقود والعهود .

٣. من نقض عهده فرجع إلى الكفر فله عذاب عظيم في الدنيا والآخرة .

(وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٦)) .

[النحل : ٩٥-٩٦] .

==========

وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً) أي لا تعتاضوا عن الأيْمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة .

(إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) ولو حيزت لابن آدم بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده .

كما قال تعالى (والآخرة خير وأبقى) .

وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة

(مَا عِندَكُمْ) ولو كثر جداً ، لا بد أن :

(يَنفَدُ) أي ينقضي ويزول ويفنى ، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر منتاه .

(وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ) أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له ، فإنه دائم يحول ولا يزول .

بيَّنَ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ مَا عِنْدَهُ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ بَاقٍ لَا يَفْنَى . وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ : كَقَوْلِهِ (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) وَقَوْلِهِ (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ) وَقَوْلِهِ (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) قسم من الرب تعالى ، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئها .

أَقْسَمَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ سَيَجْزِي الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ – أَيْ : جَزَاءَ عَمَلِهِمْ – بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ : أَنَّهُ جَزَاءٌ بِلَا حِسَابٍ : كَمَا فِي قَوْلِهِ (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

الفوائد :

١. تحريم أن يبيع الإنسان دينه بثمن قليل .

٢. خطر فتنة الدنيا على القلوب .

٣. أقبح الناس من يشتري بدينه .

٤. الدنيا كلها ثمن قليل .

٥. خطر طلب الدنيا من مال أو جاه أو منصب على حساب الدين .

٦. على المسلم أن يزهد في الدنيا ويرغب فيما عند الله .

٧. كل شيء في هذه الدنيا ينفد وينقضي .

٨. حقارة الدنيا .

٩. ما عند الله يبقى .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٧)) [النحل : ٩٧] .

==========

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ ...) هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى ، من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة .

فائدة : ١

من عمل صالحاً : هذا شرط للحياة الطيبة ، والعمل الصالح ما جمع شروطاً :

أولاً : أن يكون خالصاً لله تعالى .

كما قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ..

وقال تعالى (قل الله أعبد مخلصاً له ديني . فاعبدوا ما شئتم من دونه) .

ثانياً : أن يكون موافقاً لما جاء به النبي ﷺ .

كما قال ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

ثالثاً : أن يكون مؤمناً .

لقوله (وهو مؤمن) فقيد ذلك بالإيمان ، ومفهومه أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح .

كما قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً) .

وقال تعالى (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُون) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

فائدة : ٢

اختلف العلماء في المراد بالحياة الطيبة في هذه الآية :

فقيل : هي القناعة ، وقيل : هي الرزق الحلال ، وقيل : هي العمل بالطاعة والانشراح لها ، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله .

فائدة : ٣

الراجح من أقوال العلماء : أن الْحَيَاة الطَّيِّبَة فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُوَفِّقَ اللَّهُ عَبْدَهُ إِلَى مَا يُرْضِيهِ ، وَيَرْزُقَهُ الْعَافِيَةَ وَالرِّزْقَ الْحَلَالَ : كَمَا قَالَ تَعَالَى (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النار) .

وَفِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الْآيَةِ : حَيَاتُهُ فِي الدُّنْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً : وَتِلْكَ الْقَرِينَةُ هِيَ أَنَّنَا لَوْ قَدَّرْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ : حَيَاتُهُ فِي الْجَنَّةِ فِي قَوْلِهِ (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) صَارَ قَوْلُهُ (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تِكْرَارًا مَعَهُ : لِأَنَّ تِلْكَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ هِيَ أَجْرُ عَمَلِهِمْ ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قَدَّرْنَا أَنَّهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : فَإِنَّهُ يَصِيرُ الْمَعْنَى : فَلَنُحْيِيَنَّهُ فِي الدُّنْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ بِأَحْسَنِ مَا كَانَ يَعْمَلُ ، وَهُوَ وَاضِحٌ.

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ تُؤَيِّدُهُ السُّنَّةُ الثَّابِتَةُ عَنْهُ ﷺ .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ – فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَشْمَلُ وُجُوهَ الرَّاحَةِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ : أَنَّهُمْ فَسَّرُوهَا بِالرِّزْقِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ ، وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَنَّهُ فَسَّرَهَا بِالْقَنَاعَةِ ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ ، وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ – إِلَى أَنْ قَالَ – وَقَالَ الضَّحَّاكُ : هِيَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ ، وَالْعِبَادَةُ فِي الدُّنْيَا . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : هِيَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ ، وَالْعِبَادَةُ فِي الدُّنْيَا . وَقَالَ الضَّحَّاكُ أَيْضًا هِيَ الْعَمَلُ بِالطَّاعَةِ وَالِانْشِرَاحُ بِهَا.

وَالصَّحِيحُ : أَنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ تَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ : كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ ، ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ ، حَدَّثَنِي شُرَحْبِيلُ بْنُ شَرِيكٍ ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِّيِّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا أَتَاهُ) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ

وعن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (قَدْ أَفْلَحَ مِنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ بِهِ) وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

فائدة : ٤

القناعة هي السعادة والحياة لمن أراد الحياة.

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً).

قال العلماء: الحياة الطيبة: الرضا والقناعة.

ولهذا قال ابن الجوزي – رحمه الله تعالى–: من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه.

والقناعة أفضل الحسنات والخيرات.

قال رب الأرض والسماوات (وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

حسنة الدنيا: القناعة في الرزق.

والقناعة من أسباب الفلاح.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ) رواه مسلم.

هي القناعة فالزمها تعش ملكًا ---- لو لم يكن لك إلا راحة البدن.

فأين من ملك الدنيا بأجمعها ---- هل راح منها بغير القطن والكفن.

وأخبر النبي ﷺ أن من قنع فله طوبى.

عن فضَالَة بن عبيدٍ الأنصاريّ ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول (طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإِسْلاَمِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافاً وَقَنِع) رواه الترمذي.

القناعة سبب للغنى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ). فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ (اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ الناس ، واقنع بما رزقك الله تكن أغنى الناس) .

قالت الحكماء: اقنع تشبع.

وخير من قول الحكماء، قول سيد الحكماء، عليه الصلاة والسلام في الأرض والسماء:

عن عُبَيْدِ الله بنِ مِحْصن الأَنصَارِيِّ الخطميِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سربِهِ، مُعَافىً فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا) رواه الترمذي.

والقناعة فيها العز، والذل في الطمع.

ذلك أن القانع لا يحتاج إلى الناس فلا يزال عزيزاً بينهم، والطمّاع يُذل نفسه من أجل المزيد.

جاء في حديث سهل بن سعد مرفوعاً (شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس).

وكان محمد بن واسع رحمه الله تعالى يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله: لا تزال كريماً على الناس، ولا يزال الناس يكرمونك ما لم تغاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك.

كما أن الإمامة في الدين والسيادة في الدنيا والرفعة في الذكر لا يحصّلها المرء إلا إذا استغنى عن الناس وما في أيديهم، واحتاج الناس إليه في العلم والوعظ والإحسان.

قال أعرابي لأهل البصرة: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

قال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس هماً الحسود واهنأهم عيشاً القنوع.

قيل: للذل من أبوك؟ قال: الطمع، وقيل: للعز والكرامة من أبوك؟ قال: الرضا والقناعة.

من طمع ذل، ومن قنع عز.

قال سعد لابنه: يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس مما في أيدي الناس.

قيل للحسن للبصري: وقيل له: ما الذي زهدك في الدنيا، ما سر زهدك، فقال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأن قلبي، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به، وعلمت أن الموت ينتظرني فانا في استعداد له.

وقال ابن حبان: مِن أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطرًا القناعة، وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بالقسم، ولو لم يكن في القناعة خصلة تُحمد إلا الراحة، وعدم الدخول في مواضع السوء لطلب الفضل، لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على حالة من الأحوال.

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد.

قال حكيم: إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وأكساه العفاف.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشَّرف في التَّواضُع، والعزُّ في التَّقوى، والحرّية في القناعة.

قال ابن الجوزي: لا عيش في الدنيا إلا للقنوع باليسير، فإنه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهمّ، وتشتت القلب، واستعبد العبد، وأما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه، ولا يبالي بمن هو مثله، إذ عنده ما عنده .

كما قيل: من رضي بالخلِّ والبقْل لم يستعبده أحد .

أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعتُ لكنت حراً.

وقال ﷺ (وأعوذ بك من نفس لا تشبع) رواه مسلم.

لأن النفس إذا ما رُبيت على القناعة والاقتصاد والاقتصار فإنها لا تشبع، ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله: ما طمحت نفس لشيء من هذه الدنيا فبلغته إلا طمحت إلى ما هو أعلى منه.

قال سعد لابنه: إياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك بالقناعة فإنها مال لا ينفد.

قال علي (وما الخمر الصرف بأذهب لعقول الرجال من الطمع)

قيل:

حسبي بعلمي إن نفع ... ما الذل إلا في الطمع.

من راقب الله نزع ... عن سوء ما كان صنع.

وقال عبد العزيز الجرجاني رحمه الله، يبعث برسالة للعلماء، قال:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عَظَّموه في النفوس لعُظِّما

ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما.

وكان عمر يقول في خطبته على المنبر: إنَّ الطمع فقر، وإنَّ اليأس غنى، وإنَّ الإنسانَ إذا أَيِسَ من الشيء استغنى عنه.

والطمع يذهب العلم.

روي أنَّ عبد الله بن سلام لقيَ كعب الأحبار عند عمر، فقال: يا كعب، مَنْ أربابُ العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد إذ حفظوه وعقلوه؟ قال: يُذهبه الطمعُ، وشرَهُ النفس، وتطلبُ الحاجات إلى النَّاس، قال: صدقت.

والطمع يمحق البركة.

فعن حكيم بن حزام ﷺ قال (سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع).

قال أبو بكر الوراق: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل، ولو قيل ما غايتك؟ لقال: الحرمان.

قال ابن عطاء الله: أنت حر مما أنت عليه آيس، وعبد لما أنت له طامع.

قيل: العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع.

وقيل: إن العقاب يطير في مصاف عزه بحيث لا يرتقي طرف إلى مطاره، ولا تسمو الهمة إلى الوصول إليه، فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبي يلعب به، فحين كان في عليائه كان عزيزاً حراً، فلما طمع في قطعة لحم ورغب فيها نزل إليها فقد حريته.

قال الحسن البصري: فساد الدين الطمع وصلاح الدين الورع.

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)) .

[النحل : ٩٨-١٠٠] .

==========

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم .

فائدة : ١

ومعنى الاستعاذة : أي أستجير بجناب الله من الشيطان أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله.

قوله تعالى (**الشيطان**) يحتمل: أن المراد به الشيطان المخصوص وهو إبليس الذي كانت قصته مع أبينا آدم، ويحتمل: أن المراد به كل شيطان [كل ما يصدق عليه هذا الاسم أو الوصف]، وهذا أصح، لأنه يدخل فيه الأول ويدخل فيه سائر الشياطين، ومن المعلوم أن سائر الشياطين يصدون الإنسان عن طاعة الله.

قوله تعالى (الشيطان) مشتق على الصحيح من شَطَن أي بعُد، فالشيطان بعيد عن الخير وطباع البشر وعن كل معروف، وقيل: مشتق من شاط، لأنه مخلوق من نار، والأول أصح.

(الرجيم) صفة للشيطان، فالرجيم فعيل بمعنى مفعول أي: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله.

والرجم أصله الرمي بالحجارة، والشيطان مرجوم بالقول وبالفعل:

بالقول: بالسب والشتم والذم ويلحق به كل قول قبيح.

وبالفعل: أن رجمه الله أي طرده وأبعده من رحمته، ويرجم بالشهب كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب).

وقيل: رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس. قال ابن كثير: والأول أشهر وأصح. [تفسير ابن كثير]»

فائدة : ٢

تشرع الاستعاذة في مواضع:

منها: عند قراءة القرآن.

قال تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ).

ومنها: عند حصول نزغ من الشيطان ووسوسة.

قال تعالى (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

ومنها: عند ما يوسوس الشيطان للمسلم في معتقده بربه.

لحديث أبي هريرة. قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته) متفق عليه.

ومنها: عند ما يُلبس الشيطان على الإنسان في صلاته.

لحديث عثمان بن أبي العاص (أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ، فقال رسول الله ﷺ ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته، فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً، قال: فعلت ذلك، فأذهبه الله عني) رواه مسلم.

ومنها: عند الغضب.

لحديث سليمان بن صُرد قال (استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه، مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ إني لأعلم كلمة لو قالها، لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ...) متفق عليه .

ومنها: عندما يرى الإنسان رؤيا يكرهها.

لحديث أبي قتادة. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه، فلينفث عن يساره ثلاثاً، ويتعوذ بالله من شرها، فإنها لن تضره .. ، وفي رواية: وليتعوذ بالله من شر الشيطان وشرها ... فإنها لن تضره).

ومنها: عند نزول منزل.

لحديث خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول (من نزل منزلاً، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات، من شر ما خلق، لم يضره شيء، حتى يرتحل من منزله ذلك) رواه مسلم .

ومنها: عند دخول الخلاء.

لحديث أنس. قال (كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث) متفق عليه.

فائدة : ٣

اختلف العلماء في حكم الاستعاذة في الصلاة وخارجها على قولين:

القول الأول: أنها واجبة.

لقوله تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) قالوا: هذا أمر والأمر يقتضي الوجوب.

استحباب الاستعاذة قبل القراءة، وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوبها قبل القراءة لقوله تعالى (فاستعذ بالله)»

القول الثاني: أنها مستحبة قبل القراءة، سواء كان ذلك في الصلاة أو خارجها.

وهذا قول جمهور العلماء.

قال ابن كثير: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة، يأثم تاركها.

وقال النووي: ثم إن التعوذ مستحب وليس بواجب، وهو مستحب لكل قارئ، سواء كان في الصلاة أو في غيرها.

ويدل على عدم الوجوب:

حديث أنس قال النبي ﷺ (لقد أنزلت علي سورة آنفاً: بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر) رواه مسلم. ولم يذكر الاستعاذة.

ولأن النبي ﷺ لم يعلمها الأعرابي حين علمه الصلاة، وهذا القول هو الصحيح»

قوله (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) هذه إحدى صيغ الاستعاذة. واختار هذه الصيغة أكثر العلماء، لأنها الصيغة التي جاءت بالقرآن. [الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٦٢]»

وهو الذي ورد في السنة كما في حديث سليمان بن صُرد قال (استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه، مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ : إني لأعلم كلمة لو قالها، لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ...) متفق عليه.

قال ابن عطية: وأما لفظ الاستعاذة، فالذي عليه جمهور الناس، هو لفظ كتاب الله تعالى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

الصيغة الثاني: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، كما قال تعالى (فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم).

الصيغة الثالثة: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه.

كما في حديث أبي سعيد الذي عند أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا قام من الليل فاستفتح صلاته

وكبر قال (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك . ثم يقول . أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه).

قال ابن كثير: وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والنفخ الكبر، والنفث الشعر [الشعر المذموم] .

فائدة : ٤

الحكمة من الاستعاذة قبل القراءة:

أولاً: أن القرآن شفاء لما في الصدور يُذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات.

ثانياً: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته، والشيطان ضد الملك وعدوه، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه.

ثالثاً: أن الشيطان يُجلب بخيله ورجله على القارئ حتى يشغله عن المقصود بالقرآن.

رابعاً: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه. [إغاثة اللهفان: ١/ ١٠٧].

فائدة : ٥

ذهب جماهير العلماء أن الاستعاذة تكون قبل القراءة، ويدل لذلك:

قوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) المعنى: إذا أردت القراءة فاستعذ بالله.

قال الشنقيطي في قوله تعالى: (فإذا قرأت لقرآن فاستعذ بالله): إنه على حذف الإرادة، أي إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، والدليل على ذلك تكرر حذف الإرادة في القرآن، وفي كلام العرب، لدلالة المقام عليه، كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ..) الآية، أي إذا أردتم القيام إليها. ... [أضواء البيان:].

وأيضاً فعل النبي ﷺ ، فإنه كان يستعيذ قبل القراءة.

وقال بعض العلماء: تكون الاستعاذة بعد القراءة، على ظاهر الآية (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله).

والراجح قول الجمهور .

فائدة : ٦

فيه أنه لا نجاة من الشيطان الجني إلا بالاستعاذة، أما الشيطان الإنسي فكما قال تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم).

قال ابن كثير: ... ولهذا أمر الله بمصانعة شيطان الإنسان ومداراته بإسداءِ الجميل إليه، ليَرُدَّهُ طبعُه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رِشوةً ولا يؤثر فيه جميل، لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة قوله تعالى في الأعراف (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ...) هذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وقال تعالى في سورة قد أفلح (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ). وقال تعالى في فصلت (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

فالشيطان الجني لا يقبل رشوة ولا إحساناً، لا يبتغي إلا هلاك بني آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى (يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ) وقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)، وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام إنه لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).

قال بعض العلماء: إن نظرت إلى قصة أبيك فإنه أقسم بأنه له من الناصحين ثم كان عاقبة ذلك الأمر أنه سعى في إخراجه من الجنة، وأما في حقك فإنه أقسم بأنه يضلك ويغويك فقال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) فإذا كانت هذه معاملته مع أنه قد أقسم أنه من الناصحين فكيف تكون معاملته مع أنه أقسم أنه يضل و يغوي؟!»

(**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**) ذَكَرَ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الشَّيْطَانَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنَّ سُلْطَانَهُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى أَتْبَاعِهِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .

قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه .

وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وهذا كثير في القرآن .

وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير، وعزاه الواحدي لعامة المفسرين.

وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ :

كَقَوْلِهِ (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) .

وَقَوْلِهِ (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

وَقَوْلِهِ (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) .

ومعنى (الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ) الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ فَيُوَالُونَهُ بِالطَّاعَةِ .

(**وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**) الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى الشَّيْطَانِ لَا إِلَى اللَّهِ . وَمَعْنَى كَوْنِهِمْ مُشْرِكِينَ بِهِ هُوَ طَاعَتُهُمْ لَهُ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

جاء في (التفسير الوسيط) أي : والذين هم بسبب الشيطان وإغوائه لهم، مشركون مع الله– تعالى– آلهة أخرى في العبادة.

فالضمير في (به) يعود إلى الشيطان، والباء للسببية.

ويرى بعضهم أن الضمير في «به» يعود على الله– تعالى، وأن الباء للتعدية، فيكون المعنى: إنما سلطان الشيطان على الذين يطيعونه، والذين هم بالله– تعالى– مشركون.

والأول أرجح لاتحاد الضمائر فيه، ولأنه هو المتبادر إلى الذهن.

ممن اختار أنَّ مرجعَ الضميرِ في (بِهِ) يعودُ إلى الله تعالى: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ .

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى الشيطانِ، أي: بسببِه ومن أجلِه صاروا مشركين بالله.

وممن فسَّره بذلك: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي، والسمين الحلبي، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطي .

الفوائد :

١. الأمر بالاستعاذة من الشيطان قبل قراءة القرآن .

٢. عداوة الشيطان للإنسان .

٣. الشيطان يحاول أن يشوش على الإنسان قراءته .

٤. لا سلطان للشيطان على عباد الله المخلصين .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)) .

[النحل : ١٠١ – ١٠٢] .

==========

(**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ** ...) التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه. فتبديل الآية رفعها بآية أخرى.

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية هنا: الآية القرآنية. وعلى أن المراد بتبديلها نسخها.

وقال الجمل: قوله- تعالى-: وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ ... وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا: إن محمدا ﷺ يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا، ما هذا إلا مفترى يتقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله- تعالى-: وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ ... والمعنى: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر .

ومنهم من يرى أن المراد بالآية هنا «الآية الكونية» أي المعجزة التي أتى بها كل نبي لقومه وأن المراد بتبديلها: الإتيان بمعجزة أخرى سواها.

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب، لأن قوله- تعالى- بعد ذلك: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ... يدل دلالة واضحة على أن المراد بالآية، الآية القرآنية.

ذَكَرَ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ إِذَا بَدَّلَ آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ، بِأَنْ نَسَخَ آيَةً أَوْ أَنْسَاهَا ، وَأَتَى بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَنَّ الْكُفَّارَ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلطَّعْنِ فِي الرَّسُولِ ﷺ : بِادِّعَاءِ أَنَّهُ كَاذِبٌ عَلَى اللَّهِ ، مُفْتَرٍ عَلَيْهِ . زَعْمًا مِنْهُمْ أَنَّ نَسْخَ الْآيَةِ بِالْآيَةِ يَلْزَمُهُ الْبُدَاءُ ، وَهُوَ الرَّأْيُ الْمُجَدَّدُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ . فَيُفْهَمُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ ، زَاعِمِينَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنَ اللَّهِ لَأَقَرَّهُ وَأَثْبَتَهُ ، وَلَمْ يَطْرَأْ لَهُ فِيهِ رَأْيٌ مُتَجَدِّدٌ حَتَّى يَنْسَخَهُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ مَعْنَاهُ: نَسَخْنَا آيَةً وَأَنْسَيْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا)، وَقَوْلُهُ: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أَيْ : أَنْ تَنْسَاهُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ إِنْ نَسَخَ آيَةً أَوْ أَنْسَاهَا ، لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ بِبَدَلِ خَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) ، وَقَوْلُهُ هُنَا (بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) .

وَمَا زَعَمَهُ الْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ : مِنْ أَنَّ النَّسْخَ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ : لِأَنَّهُ يَلْزَمُهُ الْبُدَاءُ ، وَهُوَ الرَّأْيُ الْمُتَجَدِّدُ ظَاهِرُ السُّقُوطِ ، وَاضِحُ الْبُطْلَانِ لِكُلِّ عَاقِلٍ : لِأَنَّ النَّسْخَ لَا يَلْزَمُهُ الْبُدَاءُ الْبَتَّةَ ، بَلِ اللَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – يُشَرِّعُ الْحُكْمَ وَهُوَ عَالِمٌ بِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ سَتَنْقَضِي فِي الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ ، وَأَنَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ الْوَقْتِ يَنْسَخُ ذَلِكَ الْحُكْمَ وَيُبَدِّلُهُ بِالْحُكْمِ الْجَدِيدِ الَّذِي فِيهِ الْمَصْلَحَةُ : فَإِذَا جَاءَ ذَلِكَ الْوَقْتُ الْمُعَيَّنُ أَنْجَزَ – جَلَّ وَعَلَا – مَا كَانَ فِي عِلْمِهِ السَّابِقِ مِنْ نَسْخِ ذَلِكَ الْحُكْمِ ، الَّذِي زَالَتْ مَصْلَحَتُهُ بِذَلِكَ الْحُكْمِ الْجَدِيدِ الَّذِي فِيهِ الْمَصْلَحَةُ . كَمَا أَنَّ حُدُوثَ الْمَرَضِ بَعْدَ الصِّحَّةِ وَعَكْسَهُ ، وَحُدُوثَ الْغِنَى بَعْدَ الْفَقْرِ وَعَكْسَهُ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ لَا يَلْزَمُ فِيهِ الْبُدَاءُ : لِأَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِأَنَّ حِكْمَتَهُ الْإِلَهِيَّةَ تَقْتَضِي ذَلِكَ التَّغْيِيرَ فِي وَقْتِهِ الْمُعَيَّنِ لَهُ ، عَلَى وَفْقِ مَا سَبَقَ فِي الْعِلْمِ الْأَزَلِيِّ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ .

=النسخ جائز عقلاً وواقع شرعاً.

أما جوازه عقلاً، فلأن الله بيده الأمر وله الحكم، لأنه الرب المالك، فله أن يشرع لعباده ما تقتضيه حكمته ورحمته، وهل يمنع العقل أن يأمر المالك مملوكه بما أراد؟ ثم إن مقتضى حكمة الله ورحمته بعباده أن يشرع لهم ما يعلم تعالى أن فيه قيام مصالح دينهم ودنياهم، والمصالح تختلف بحسب الأحوال والأزمان، فقد يكون الحكم في وقت أو حال، أصلح للعباد، ويكون غيره في وقت أو حال أخرى أصلح، والله عليم حكيم.

وأما وقوعه شرعاً فلأدلة منها:

قوله تعالى: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) ثم قال سبحانه: (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) وهذا نص صريح في النسخ.

قوله –صلى الله عليه وسلم–: (كنت نهيتكم عز زيارة القبور فزوروها) رواه مسلم

فهذا نص صريح في نسخ النهي عن زيارة القبور»

(**قُلْ**) لهم يا محمد .

(**نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ**) جبريل .

والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الروح المقدس. ووصف بالقدس لطهارته وبركته. وسمى روحا لمشابهته الروح الحقيقي في أن كلا منهما مادة لحياة البشر. فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب. والروح تحيا به الأجسام.

(**مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**) أي : بالصدق والعدل .

(**لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ**) فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً ، وتخبت له قلوبهم .

وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) تقدم شرحها .

الفوائد :

١. أن القرآن منزل غير مخلوق .

٢. حكمة الله في نسخ بعض الآيات .

٣. أن القرآن نزل به جبريل على محمد ﷺ .

٤. أن القرآن حق وكل ما فيه حق .

٥. من أعظم حكم نزول القرآن تثبيت المؤمنين وهدايتهم ورحمة لهم .

(**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)**) .

[النحل : ١٠٣-١٠٥] .

==========

(**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**) أقسم جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يعلم أن الكفار يقولون : إن هذا القرآن الذي جاء به النبي ﷺ ليس وحياً من الله ، وإنما تعلمه من بشر من الناس .

كما قال تعالى (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) .

وقال تعالى عنهم (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) أي يرويه محمد عن غيره .

– وقد اختلف في تعيين هذا البشر على أقوال كثيرة ، ولا يصح منها شيء ، ولا فائدة من معرفته .

وقد ردّ الله تعالى عليهم بقوله :

(**لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ**) أي لسان الذي يزعمون أنه علّمه وينسبون إليه التعليم أعجمي .

يلحدون: أي يميلون عن الحق، والمعنى لسان البشر الذي يلحدون: أي يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه أعجمي غير بيّن.

(**وَهَذَا**) القرآن .

(**لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**) عربي مبين فصيح ، لا شائبة فيه من العجمة ، فهذا غير معقول .

قال ابن كثير : أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل .

– وقد بيّن تعالى تعنتهم أيضاً بأنه لو جعل القرآن أعجمياً لكذبوه أيضاً وقالوا : كيف يكون هذا القرآن أعجمياً مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي ، وذلك في قوله تعالى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) .

– معنى لسان هنا : أي كلام .

(**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ**) أي لا يصدقون بهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ .

(**لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ**) إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا .

وأن هداية الله تنقسم إلى قسمين :

هداية الدلالة والإرشاد ، وهذا عامة ، وبها أقام الله الحجة على جميع الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب (رسلا مبشرين ...) .

وهداية التوفيق وهذه خاصة بالمؤمنين ، وهي المنفية عن الذين لا يؤمنون بآيات الله بقوله (لا يهديهم الله) .وهذه عقوبة عاجلة لهم في الدنيا بسبب عدم إيمانهم بآيات الله كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

(**وَلَهُمْ**) في الآخرة .

(**عَذَابٌ أَلِيمٌ**) موجع .

(**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ**) أي إنما يصدر افتراء الكذب .

(**الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ**) أي لا يصدقون بالله ولا بآياته ، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه .

– والآية رد لقولهم (إنما أنت مفتر) .

(**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ**) أي الكذب منحصر فيهم .

– وأما محمد ﷺ فقد كان اصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً ويقيناً ، معروفاً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم ، بحيث لا يُدعَى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سأل من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل .

الفوائد :

١. افتراء الكفار وتكذيبهم للقرآن .

٢. علم الله بقولهم هذا ، وفي هذا تهديد لهم وأنه سيعاقبهم عليه .

٣. القرآن حق ، وما نزل به حق .

٤. وجوب الإيمان بالقرآن .

٥. وجوب الإيمان باليوم الآخر .

٦. تهديد من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

(مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ (١٠٩)) .

[النحل : ١٠٦– ١٠٩]

(مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأن به ، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه ، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة ، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الحق الحق ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم .

– قوله **(إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ)** هذا استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله .

والإكراه الإلجاء إلى قول أو فعل .

– سبب نزولها :

قال ابن كثير : وقَدْ رَوَى الْعَوفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ حِينَ عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مُكْرَهًا، وَجَاءَ مُعْتَذِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هذه الآية. وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزَرِيِّ، عَنْ أَبِي عبيدة مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَعَذَّبُوهُ حَتَّى قَارَبَهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ» ؟

قَالَ: مُطَمْئِنًا بِالْإِيمَانِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ عَادُوا فَعُد .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كَمَا كَانَ بِلَالٌ ﷺ يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ، حَتَّى إنهم ليضعوا الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، ويأمرونه بالشرك بِاللَّهِ فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ. وَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا، ﷺ وَأَرْضَاهُ. وَكَذَلِكَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْمَعُ. فَلَمْ يَزَلْ يُقَطِّعُهُ إِرْبًا إِرْبًا وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى ذَلِكَ.

–هل الأولى للإنسان أن يصبر إذا أكره على الكفر ويُقتل؟ أو يوافق ظاهراً ويتأول؟

المسألة فيها تفصيل:

١ .أن يوافق ظاهراً وباطناً، فهذا لا يجوز لأنه ردّة.

٢ .أن يوافق ظاهراً لا باطناً، ولكن بقصد التخلص من الإكراه، فهذا جائز.

٣ .أن لا يوافق لا ظاهراً ولا باطناً ويقتل، وهذا جائز وهو من الصبر.

لكن، أيهما أفضل: أن يصبر ويقتل؟ أو أن يوافق ظاهراً؟ فيه تفصيل:

إذا كان الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامة، فإن الأولى أن يوافق ظاهراً لا باطناً، لا سيما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس كصاحب العلم ونحوه.

وأما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام فإنه يصبر، وقد يجب الصبر.

والإمام أحمد رحمه الله في المحنة المشهودة لو وافقهم ظاهراً لحصل في ذلك مضرّة على الإسلام.

(**وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً**) أي : طابت نفسه بالكفر وانشرح صدره له .

(**فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ**) بسبب كفرهم ، ومن غضب الله عليه عاقبه قال تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) أي : فلما أغضبونا انتقمنا منهم .

(**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) في الدنيا والآخرة .

(**ذَلِكَ**) الغضب والعذاب الأليم .

(**بِأَنَّهُمُ**) بسبب .

(**اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ**)أَيْ : يُقَدِّمُونَهَا وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَيْهَا وَيَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا، وَنَسُوا الْآخِرَةَ وَتَرَكُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِم .

– **قال الرازي** : قوله تعالى (الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا) يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية، ولا يكون الإنسان كذلك إلا إذا كان غافلاً عن الحياة الأخروية، وعن معايب هذه الحياة العاجلة، ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة، وذلك لأن هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب.

فأحدها : أن بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والأسقام والغموم والهموم والمخاوف والأحزان.

وثانيها : أن هذه اللذات في الحقيقة لا حاصل لها إلا دفع الآلام ، بخلاف اللذات الروحانية فإنها في أنفسها لذات وسعادات.

وثالثها : أن سعادات هذه الحياة منغصة بسبب الانقطاع والإنقراض والانقضاء.

ورابعها : أنها حقيرة قليلة ، وبالجملة فلا يحب هذه الحياة إلا من كان غافلاً عن معايبها وكان غافلاً عن فضائل الحياة الروحانية الأخروية ، ولذلك قال تعالى (والأخرة خَيْرٌ وأبقى) فهذه الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه.

ثم قال رحمه الله : وقوله (يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا عَلَى الأخرة) لأن فيه إضماراً ، والتقدير : يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ، فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليتبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموماً إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة ، فأما من أحبها ليصل بها إلى منافع النفس وإلى خيرات الآخرة فإن ذلك لا يكون مذموماً حتى إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته فهذه المحبة هي المحبة المذمومة.

وقال القرطبي : وقيل (يَسْتَحِبُّونَ) أي : يلتمسون الدنيا من غير وجهها ؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته.

(**وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**) الهداية المنفية هنا هي هداية التوفيق، أي: إن الله لا يوفق القوم الظالمين، وأما هداية الدلالة والإرشاد فهي عامة لهم ولغيرهم من الخلق كما قال تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) وقال تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى).

وهنا سؤال معروف، وهو أن الله قد هدى كثير من الكفار، ومثل هذه الآية (إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين)، فكَمْ مِنْ كافرٍ ظالمٍ يهديه الله؟ فكيف قال (وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) والجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذه الآيةَ الكريمةَ وأمثالَها في القرآنِ من العامِّ المخصوصِ، أي: لا يهدِي القومَ الكافرينَ الذين سَبَقَ في عِلْمِهِ عدمُ هدايتِهم وشقاؤهم شقاءً أزليًّا.

كقولِه (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ).

وقولُه (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ). ونحو ذلك من الآياتِ. وعلى أن هذه الآيةَ الكريمةَ من العامِّ المخصوصِ بآياتٍ أُخَرَ فلاَ إشكالَ.

القول الثاني: لا يهدي الظالمين ما داموا مصرّين على ظلمهم، فإن رزقهم الله التوبة والإنابة زال اسم الظلم عنهم، ولم يدخلوا في عداد الظالمين، فصار لا إشكال في هدايتهم. (الشنقيطي).

(**أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**) أي : ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، فجعل عليها غلافا بحيث لا تذعن للحق ، ولا تسمعه ولا تبصره .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) أي : الكاملون في الغفلة ، إذ شغلتهم الدنيا عن تدبر العواقب .

(**لاَ جَرَمَ**) أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته .

(**أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ**) الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وفاتهم النعيم المقيم ، وحصلوا على العذاب الأليم .

قال المفسرون : وصفهم تعالى بست صفات ، هي : (الغضب من الله ، والعذاب العظيم ، واختيارهم الدنيا على الآخرة وحرمانهم من الهدى ، والطبع على قلوبهم ، وجعلهم من الغافلين) .

الفوائد :

١. شدة عقاب من كفر بعد إيمانه .

٢. في الحديث (من بدل دينه فاقتلوه) .

٣. إثبات الغضب لله .

٤. خطر فتنة الدنيا .

٥. وجوب الحذر من فتنة الدنيا من مال أو منصب أو شهوة .

٦. طبع الله على قلب الكافر وسمعه وبصره .

٧. أن من كفر مكرهاً لكن قلبه مطمئن بالإيمان فلا شيء عليه .

٨. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١١١)) .

[النحل : ١١٠-١١١] .

==========

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ) ثم إن ربك» - أيها الرسول الكريم- تكفل بالولاية والمغفرة لهؤلاء الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام، من بعد أن عذبهم المشركون لكي يرتدوا عن دينهم (ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا) أي: جاهدوا المشركين حتى تكون كلمة الله هي العليا، وصبروا على البلاء والأذى طلبا لرضا الله- تعالى-.

(إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا) الضمير في قوله (مِنْ بَعْدِها) يعود إلى ما سبق ذكره من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر. أي: إن ربك- أيها الرسول الكريم- من بعد هذه الأفعال .

(لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) لكثير المغفرة والرحمة لهم، جزاء هجرتهم وجهادهم وصبرهم على الأذى.

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ) تحاج .

(عَن نَّفْسِهَا) ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة .

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ) من خير وشر .

(وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) فلا ينقصون من حسناتهم، ولا يزاد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم .

قال تعالى (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

لكمال عدل الله، فإنه سبحانه لا يظلم أحداً.

فلا يظلمون مثقال ذرة.

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً). ظلماً: أي: زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات.

وقال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) فالله عز وجل لا يظلم أحداً، لكمال عدله لا لعجزه عن الظلم.

الفوائد :

١. فضل الهجرة في سبيل الله .

٢. سنة الله في ابتلاء أوليائه .

٣. فضل الجهاد والصبر على ذلك .

٤. إثبات يوم القيامة والحساب .

٥. عدل الله حيث تعطى كل نفس ما عملت .

٦. تنزيه الظلم عن الله لكمال عدله .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (١١٢)) .

[النحل : ١١٢] .

==========

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً) هذَا مَثَلٌ أُرِيدَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ .

اختلَف المفسِّرونَ: هل المراد بهذه القريةِ قريةٌ معينةٌ، أو المرادُ قريةٌ غيرُ معينةٍ؟

فقيل: هي قريةٌ معينةٌ .

وممن اختار أنَّ المرادَ بها مكَّةُ: ابنُ جريرٍ، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابنُ الجوزي- ونَسَبه للجُمهورِ- والقرطبي، وابنُ كثير، والسَّعدي، والشنقيطي.

قال الشنقيطي: وهذه الصِّفاتُ المذكورةُ الَّتي اتَّصَفتْ بها هذه القريةُ: تتَّفقُ معَ صفاتِ أهلِ مكَّةَ المذكورةِ في القرآنِ .

وقيل: المرادُ: قريةٌ غيرُ معينةٍ .

وممن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ، والشوكاني.

(كَانَتْ آمِنَةً) تعيشها في أمان لا يشوبه خوف .

(مُطْمَئِنَّةً) أي : في سكون واطمئنان لا يخالطهما فزع أو انزعاج .

(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) بيان لسعة عيشها، أي: يأتيها ما يحتاج إليه أهلها واسعا لينا سهلا من كل مكان من الأمكنة.

فالآية الكريمة قد تضمنت أمهات النعم: الأمان والاطمئنان ورغد العيش. قال بعضهم:

ثلاثة ليس لها نهاية ... الأمن والصحة والكفاية .

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) أي: فجحَدَ أهلُ تلك القَريةِ بما أنعَمَ اللهُ عليهم، فلم يَشكُروا اللهَ عليها .

(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) بيان للعقوبة الأليمة التي حلت بأهلها بسبب كفرهم وبطرهم.

أي : فأذاق- سبحانه- أهلها لباس الجوع والخوف، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله.

وذلك بأن أظهر أثرهما عليهم بصورة واضحة، تجعل الناظر إليهم لا يخفى عليه ما هم فيه من فقر مدقع، وفزع شديد.

كما ما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) .

(بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) أي : بسبَبِ ما كانوا يَصنَعونَ مِن الكُفرِ وجُحودِ النِّعَمِ، والتَّكذيبِ بالحَقِّ، وارتِكابِ المعاصي .

وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ) أي : ولقد جاء إلى أهل هذه القرية رسول من جنسهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأمرهم بطاعة الله وشكره، ولكنهم كذبوه وأعرضوا عنه.

كما قال تعالى (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) .

والتعبير بقوله (جاءَهُمْ) يدل على أن هذا الرسول وصل إليهم وبلغهم رسالة ربه، دون أن يكلفهم الذهاب إليه، أو البحث عنه. والتعبير بالفاء في قوله: فَكَذَّبُوهُ يشعر بأنهم لم يتمهلوا ولم يتدبروا دعوة هذا الرسول، وإنما قابلوها بالتكذيب السريع بدون روية، مما يدل على غباوتهم وانطماس بصيرتهم.

(**فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ**) بيان للعاقبة السيئة التي حاقت بهم.

أي : فكانت نتيجة تكذيبهم السريع لنبيهم أن أخذهم العذاب العاجل الذي استأصل شأفتهم، والحال أنهم هم الظالمون لأنفسهم، لأن هذا العذاب ما نزل بهم إلا بعد أن كفروا بأنعم الله، وكذبوا رسوله.

فائدة : ١

خطر كفر النعمة بالتكذيب والإشراك والظلم وأن سبب لزوال النعم .

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

فائدة : ٢

أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل.

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (ومَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

فائدة : ٣

عظم نعمة الأمن .

قال تعالى عن إبراهيم (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ) .

–قال الرازي : ... والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به ، وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة ؟ فقال : الأمن أفضل ، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد.

–قال الخازن: فإن قيل: لم دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ للبلد بالأمن ؟

إنما دعا إبراهيم له بالأمن لأنه بلد ليس فيه زرع ولا ثمر فإذا لم يكن آمناً، لم يجلب إليه شيء من النواحي فيتعذر المقام به، فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وجعله بلداً آمناً، فما قصده جبار إلا قصمه الله تعالى كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم من الجبابرة.

–قال ابن عاشور: ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوة، فإن أمن البلاد والسبُل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبالَ على ما ينفع والثروةَ فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام .

أهمية الأمن ، لأنه لا يستقيم أمر الدين والدنيا إلا به .

فأوَّل مَطلَب طلَبَه إبراهيم من ربّه سبحانه هو أنْ يجعل هذا البلد آمِنا .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) .

ويقول في آيةٍ أخرى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِير) .

فانظُروا هاتين الآيتين، فإبراهيم طلَب في الآية الأولى تحقيقَ الأمن؛ حتى يتحقَّق له عبادة الله على الوجْه الصحيح (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) .

لأنَّ الإنسان في حال الفِتنة والقلاقل يشغله الخوفُ عن عبادة ربّه، وربما زاغَ كثيرًا عن الحقِّ، ألم يخبر الرسول ﷺ عن أنَّ المتمسِّك بدينه في آخِرِ الزمان حين تكثُرُ الفتن كالقابض على الجمر؟!

أمَّا الآية الثانية فطلب إبراهيم تحقيق الأمن، ثم قال (وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَات) لأنَّ بلدًا لا أمن فيه كيف تستقيم للناس فيه أرزاقُهم؟! وهذا الواقع أمامكم ما إن تُعلَن حرب أو فتنة في بلد، حتى ينقل أرباب الأموال أموالهم إلى بلدانٍ أخرى .

–قال الشوكاني :دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمناً ، أي : ذا أمن ، وقدّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده ، لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا.

وفي الآية : بدأ بالأمن قبل الرزق لسببين:

الأول : لأن استتباب الأمن سبب للرزق، فإذا شاع الأمن واستتبَّ ضرب الناس في الأرض، وهذا مما يدر عليهم رزق ربهم ويفتح أبوابه، ولا يكون ذلك إذا فُقد الأمن.

الثاني: ولأنه لا يطيب طعام ولا يُنتفع بنعمة رزق إذا فقد الأمن.

ولأهمية الأمن أكرم الله به أولياءه في دار كرامته؛ لأنه لو فُقد فُقد النعيم .

قال تعالى (ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ) .

وقال تعالى (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون) .

ومما يدل على عظم نعمة الأمن :

قوله تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

فائدة : ٤

وسائل حفظ الأمن .

شكر الله والمداومة على ذلك .

قال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ).

هذه مملكة سبأ أنعم الله عليها بأعظمِ نعمتين:

رغد في العيش .

فقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُور) .

والنعمة الأخرى: الأمن في الأوطان .

فقال سبحانه (وجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِين) .

ولكنهم ما شكروا نعمة ربِّهم، فأعرَضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، ومَلُّوها، فأتاهم العقاب :

فقال سبحانه (فأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ *ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُور) .

وقال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

قال القرطبي : سماه لباساً ؛ لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس .

تحقيق توحيد الله .

قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) وقال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) .

(بِظُلْمٍ) المراد بالظلم هنا الشرك ، كما فسرها النبي ﷺ .

تطبيق الحدود .

قال النبي ﷺ (.... وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُم) رواه ابن ماجه .

(**فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)**) .

[النحل : ١١٤] .

==========

(**فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا**) الخطاب لجميع البشر، أي: كلوا مما رزقكم الله (حلالاً) أي: ما كان حلالاً في كسبه. (طيباً) أي: طيباً في ذاته. نافعاً لآكله في دينه.

وهذا القول أولى من قول إن (طيباً) تأكيد، لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد.

ولذلك قال ﷺ (من تصدق من طيب ولا يقبل إلا الطيب) وفي الحديث (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً).

قال القرطبي: الأكل في هذه الآية عبارة عن التمتع بالأكل والشرب واللباس والركوب ونحو ذلك.

وخصّ الأكل بالذكر؛ لأنه أعظم المقصود وأخص الانتفاعات بالإنسان.

قال الرازي: قوله تعالى (وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله) يدل على أنه تعالى قد تكفل برزق كل أحد.

فإنه لو لم يتكفل برزقه لم قال {كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله} وإذا تكفل الله برزقه وجب أن لا يبالغ في الطلب وأن يعول على وعد الله تعالى وإحسانه، فإنه أكرم من أن يخلف الوعد، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: " ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب.

وفي حديث ابن مسعود (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؛ فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِم.

– قوله تعالى (حلالاً طيباً) فلا يجوز أكل الخبيث والمحرّم.

(**وَاشْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ**) أي: قوموا بشكره على نعمه عليكم، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم. [وقد تقدم مباحث الشكر]

(إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) أي: اشكروا لله تعالى إن كنتم فعلاً تعبدونه وتخضعونه له.

والعبادة: هي التذلل لله بالطاعة، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

– إن رزق الله للعبد يستلزم شكره:

فسليمان عندما رأى عرش بلقيس عنده مستقراً (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ).

ونبينا ﷺ كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ويقول: أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً.

الفوائد :

١. نعمة الله علينا بأن رزقنا .

٢. الأمر بالأكل من رزق الله .

٣. الأصل في الأشياء الحل .

٤. وجوب أكل الحلام وترك الحرام .

٥. وجوب شكر الله .

٦. أن من علامة الإيمان القيام بشكر الله .

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)).

[النحل : ١١٥] .

==========

(**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ**) أي: ما حرم عليكم ربكم إلا الخبائث كالميتة وهي: التي تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة.

والميتة إنما حرمت لاحتقان الرطوبات والفضلات والدم الخبيث فيها، والذكاة لما كانت تزيل ذلك الدم والفضلات كانت سبب الحل.

يستثنى من ذلك: ميتة البحر لقوله تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ)، قال ابن عباس: صيد البحر ما أخذ حي، وطعامه ما أخذ ميتاً.

وعن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال في البحر (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) رواه أبو داود.

ويستثنى كذلك الجراد.

(**وَالْدَّمَ**) أي: وحرم عليكم الدم، والمراد هنا الدم المسفوح كما قال تعالى (قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ).

(**وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ**) أي: وحرم عليكم لحم الخنزير.

قال القرطبي: لا خلاف في تحريم خنزير البر.

وقد ذكر الله تحريمه في عدة آيات:

فقال تعالى كما في سورة المائدة (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ).

وقال تعالى في سورة الأنعام (قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ).

وهو حيوان سمج والعين تكرهه، له نابان كنابي الفيل، ورأسه كرأس الجاموس، وهو حرام لحمه وشحمه وجميع أجزائه.

– الحكمة من تحريمه:

كثرة الديدان في لحم الخنزير، ولأن أشهى غذائه القاذورات والنجاسات، وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة القاتلة، ويقال: إن له تأثيراً سيئاً في العفة والغيرة.

(**وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**) الإهلال المراد به رفع الصوت، والمعنى: وما ذبح وذكر عليه اسم غير الله تبارك وتعالى، وكانوا يذكرون اسم آلهتهم على الذبيحة ويرفعون أصواتهم بذلك.

(**فَمَنِ اضْطُرَّ**) أي: ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات.

لكن بشرط:

(**غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ**) سيأتي المراد منهما .

(**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) هذا تعليل للحكم، فالحكم انتفاء الإثم، والعلة (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

– قال السعدي: ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها، أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة (الضرورات تبيح المحظورات) فكل محظور، اضطر إليه الإنسان، فقد أباحه له، الملك الرحمن، فله الحمد والشكر، أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

(رَحِيمٌ) ومن رحمته أنه أباح المحرمات حال الضرورة، ومن رحمته يغفر الزلات والخطيئات.

في هذه الآية جواز الأكل من الميتة عند الضرورة ، وهنا مباحث:

أولاً: تعريف الضرورة لغة وشرعاً:

قال ابن منظور: الاضطرار الاحتياج إلى الشيء وقد اضطره إليه أمر.

وشرعاً: للضرورة تعاريف متقاربة في المعنى عند الفقهاء، ومن ذلك ما يأتي:

قيل: إنها بلوغه حداً إن لم يتناول الممنوع هلك إذا قارب وهذا يبيح تناول الحرام.

وقيل: ومعنى الضرورة هاهنا خوف الضرر على نفسه أو بعض أعضائه بتركه الأكل، والمعنى متقارب.

ثانياً: بيان حد الاضطرار الذي يبيح تناول المحرم:

حد الاضطرار هنا يتبين من مجموع الآيات الواردة في الموضوع، وهي:

قوله تعالى (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ).

فأطلق في هذه الآية الإباحة بوجود الضرورة في كل حال وجدت الضرورة فيها.

قوله تعالى (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ).

فقيد الإباحة في هذه الآية بأن يكون المضطر غير باغ ولا عاد لكنه لم يبين سبب الاضطرار ولم يبين المراد بالباغي والعادي.

قوله تعالى (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

فبين سبحانه سبب الاضطرار وهو المخمصة.

وإذاً: يمكننا أن نقول: إن حد الاضطرار المبيح لتناول المحرم هو أن يخاف على نفسه التلف بسبب الجوع ولم يجد ما يتغذى به من الحلال، بشرط أن يكون غير متجانف لإثم، وهو الباغي والعادي.

وقد اختلف العلماء في المراد بالباغي والعادي على قولين:

القول الأول: أن المراد بالباغي هو الخروج على إمام المسلمين، والإثم الذي يتجانف إليه العادي هو إخافة الطريق وقطعها على المسلمين، ويلحق بذلك كل سفر معصية لله، لأن في ذلك إباحة على المعصية وذلك لا يجوز.

فعلى هذا القول: الباغي: الخارج على الإمام، والعادي: قاطع الطريق، وكل مسافر سفر معصية.

القول الثاني: أن المراد بالباغي: الذي يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال، والعادي الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه.

ورجح هذا التفسير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقال: وأما الآية فأكثر المفسرين قالوا: المراد بالباغي الذي يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال، والعادي الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه، وهذا التفسير هو الصواب، وهو قول أكثر السلف ... وليس في الشرع ما يدل على أن العاصي بسفره لا يأكل الميتة ولا يقصر، بل نصوص الكتاب والسنة عامة مطلقة.

ورجح هذا القول القرطبي والإمام ابن جرير.

ثالثاً: بيان حكم تناول الطعام المحرم في حال الضرورة.

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: يجب على المضطر الأكل من الميتة ونحوها.

وهذا قول الحنفية والصحيح من مذهب المالكية وأحد الوجهين في مذهب الحنابلة، وأصح الوجهين عند الشافعية.

لقوله تعالى (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ).

ولقوله تعالى (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وترك الأكل مع إمكانه في هذه الحال؛ إلقاء بيده إلى التهلكة، ولأنه قادر على إحياء نفسه بما أحل الله له فلزمه، كما لو كان معه طعام حلال.

القول الثاني: أنه لا يلزمه في هذه الحال الأكل من المحرم.

لأن له غرضاً في تركه وهو أن يتجنب ما حرم عليه، ولأن إباحة الأكل رخصة فلا تجب عليه كسائر الرخص.

والراجح القول الأول أنه يجب عليه أن يأكل في هذه الحال، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، حيث قال: ويجب على المضطر أن يأكل ويشرب ما يقيم به نفسه، فمن اضطر إلى الميتة أو الماء النجس فلم يشرب ولم يأكل حتى مات دخل النار.

رابعاً: بيان مقدار ما يباح للمضطر تناوله من المحرم.

يباح له أكل ما يسد به الرمق ويأمن معه الموت بالإجماع، ويحرم ما زاد على الشبع بالإجماع.

واختُلف في حكم الشبع على ثلاثة أقوال:

القول الأول: لا يباح له الشبع.

وهو قول أبي حنيفة وأحد الروايتين عن أحمد وأحد القولين للشافعي.

وهو قول ابن الماجشون من المالكية.

قالوا: لأن الآية دلت على تحريم ما ذكر فيها، واستثنى ما اضطر إليه، فإذا اندفعت الضرورة لم يحل الأكل كحال الابتداء.
ولأنه بعد سد الرمق غير مضطر فلم يحل له الأكل للآية، يحققه أن حاله بعد سد رمقه كحاله قبل أن يضطر وثم لم يبح له الأكل كذا هاهنا.
القول الثاني: أن له الشبع.
وهذا قول مالك وأحد القولين في مذهب الشافعي.
لحديث جابر بن سمرة (أن رجلاً نزل الحرة فنفقت عنده ناقة، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نقدر شحمها ولحمها ونأكله، فقال: حتى أسأل رسول الله ?، فسأله فقال: (هل عندك غنى يغنيك؟) قال: لا، قال: فكلوها) فأطلق النبي – صلى الله عليه وسلم – الأمر بأكل ولم يحدد.
القول الثالث: التفصيل بين من يخشى استمرار الضرورة فيحل له الشبع، ومن ضرورته مرجوة الزوال فلا يحل له إلا سد الرمق، لأن من ضرورته مستمرة إذا اقتصر على سد الرمق عادت الضرورة إليه عن قرب ولا يتمكن من البعد من الميتة مخافة الضرورة، ويفضي إلى ضعف بدنه، وربما أدى ذلك إلى تلفه بخلاف من ليست ضرورته مستمرة فإنه يرجو الغنى عنها بما يحل له.
وهذا احتمال في مذهب الحنابلة، ذكره صاحب المغني، وقول في مذهب الشافعي.
وهذا القول هو الراجح.
خامساً: هل يجوز للمضطر أن يتزود من الطعام المحرم؟
الصحيح أنه يجوز له ذلك، وهذا قول مالك ورواية عن أحمد وهو قول الشافعية.
لأنه لا ضرر في استصحابها ولا في إعدادها لدفع ضرورته وقضاء حاجته، ولا يأكل منها إلا عند ضرورته.
(وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)) .
[النحل : ١١٦-١١٧] .
==========
(وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ) أي : لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب : هذا حلال وهذا حرام ، من غير دليل! ولا برهان .
(لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) أي : لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه .
قال ابن الجوزي : وذلك أنهم كانوا ينسبون ذلك التحليل والتحريم إلى الله تعالى، ويقولون: هو أمرنا بهذا.
قال الرازي : المعنى : أنهم كانوا ينسبون ذلك التحريم والتحليل إلى الله تعالى ويقولون : إنه أمرنا بذلك ، وأظن أن هذا اللام ليس لام الغرض ، لأن ذلك الافتراء ما كان غرضاً لهم بل كان لام العاقبة كقوله تعالى (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً) .
(إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ) لا في الدنيا ولا في الآخرة .
(مَتَاعٌ قَلِيلٌ) في الدنيا .
قال الزجاج : المعنى متاعهم متاع قليل ، وقال ابن عباس : بل متاع كل الدنيا متاع قليل .
(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) في الآخرة .

الفوائد :

١. تحريم الكذب على الله .

٢. التحذير الشديد من التحريم والتحليل بغير علم .

٣. تحريم القول على الله بغير علم .

٤. الحذر من فتنة الدنيا .

٥. أن الإنسان قد تغره الدنيا فيكذب على الله من أجل مال أو منصب أو شهرة .

٦. أن متاع الدنيا مهما عظم فهو قليل زائل .

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)) .

[النحل : ١١٨] .

==========

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ) أي : وعلى اليهود خاصة ، حرمنا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد ، مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبةً لهم ، وهي شحوم (البقر ، والغنم ، وكل ذي ظفر) .

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) بذلك التحريم .

(وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك ، كقوله تعالى : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) .

قال ابن كثير : لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وَأَنَّهُ أَرْخَصَ فِيهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ – وَفِي ذَلِكَ تَوْسِعَةٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِهَا الْعُسْرَ –ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَانَ حَرَّمه عَلَى الْيَهُودِ فِي شَرِيعَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْسَخَهَا، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْآصَارِ وَالْأَغْلَالِ وَالْحَرَجِ وَالتَّضْيِيقِ، فَقَالَ(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ} يَعْنِي: فِي "سُورَةِ الْأَنْعَامِ" فِي قَوْلِهِ (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا [أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ} أَيْ: فِيمَا ضَيَّقْنَا عَلَيْهِمْ (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) أَيْ: فَاسْتَحَقُّوا ذَلِكَ، كَمَا قَالَ (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) .

وجاء في (**التفسير الوسيط**) وبذلك يتبين أن ما حرمه الله– تعالى– على الأمة الإسلامية، كالميتة والدم ولحم الخنزير.. كان من باب الرحمة بها، والحرص على مصلحتها.. أما ما حرمه– سبحانه– على اليهود، فقد كان بسبب بغيهم وظلمهم.

وقوله (وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بيان لمظهر من مظاهر عدل الله– تعالى– في معاملته لعباده.

أي : وما ظلمنا هؤلاء اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، حيث تركوها تسير في طريق الشيطان، ولم يوقفوها عند حدود الله– تعالى–، فاستحقوا بسبب ذلك ما استحقوا من عقوبات.

وصدق الله إذ يقول (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

الفوائد :

١. التضييق والتشديد على اليهود .

٢. أن ما حصل من التضييق عليهم ليس ظلماً من الله ولكن بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله وأكل الربا .

٣. ظلم العباد لأنفسهم بالشرك والكفر .

٤. خطر المعاصي والذنوب .

٥. أن كل بلاء وشر فسببه الذنوب والمعاصي .

٦. فضل هذه الأمة .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩))

[النحل : ١١٩] .

==========

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) أي: ثمَّ إنَّ رَبَّك- يا مُحَمَّدُ- للذين اقتَرَفوا ما لا ينبغي فِعلُه مِن الكُفرِ أو المعاصي، عن سَفَهٍ منهم، وإيثارٍ للدُّنيا، وعَمايةٍ عن عَواقِبِ ما اقتَرَفوا .

(ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ) أي: ثمَّ رَجَعوا إلى اللهِ، ونَدِموا، وأقلَعوا عن السُّوءِ مِن بعدِ ما عَمِلوه، وأصلَحوا أعمالَهم، فأقبلوا على فِعلِ الطَّاعاتِ .

(إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) أي : إنَّ ربَّك مِن بَعدِها لَغَفورٌ لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، رحيمٌ بهم، فيَقبَلُ تَوبتَهم منها، ولا يُعاقِبُهم .

قيل: الضَّميرُ يعودُ على التَّوبةِ.

وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والسمرقندي.

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ على الفَعلةِ السَّيِّئةِ. وممَّن قال بذلك: ابن كثير.

وجمَع بينهما البقاعيُّ، فقال: مِنْ بَعْدِهَا أي: التَّوبةِ وما تقَدَّمَها من أعمالِ السُّوءِ .

الفوائد :

١. رحمة الله بعباده حيث يغفر لمن تاب وآمن .

٢. فضل التوبة وأن تجب ما قبلها إذا أتى بشروطها .

٣. لابد من التوبة إصلاح ما تم إفساده .

٤. إثبات اسمين من أسماء الله : الغفور ، والرحيم .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)) .

[النحل : ١٢٠ – ١٢٣] .

==========

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) قيل معناها هنا: الرجل الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس ، وهذا هو المقصود في حق إبراهيم ، وهذه تدلنا على عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق.

وقيل أن المقصود بالأمة هنا: أي الإمام ، أي قدوة يقتدى به في الخير ، وممن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير.

(قَانِتًا لِلّهِ) أي: مُطيعًا لله، مُلازِمًا لعِبادتِه بإخلاصٍ وخُشوعٍ .

القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع.

(**حَنِيفًا**) الحَنَف: الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيفُ: المائل والجنف: ضده. والأحنف: مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً، وقيل لمجرد الميل.

قال ابن كثير: الحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد. وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين، قال تعالى (ولَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكِينَ) وقال (ومَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ) وهكذا فليكن أولياء الله .

والحنيفية لها في الشرع معنيان: أحدهما: الإسلام، والثاني: خاص: وهو الإقبال على الله بالتوحيد بالميل عن ما سواه.

وهي دين الأنبياء جميعاً، وخصت بالإضافة إلى إبراهيم، لأن إبراهيم أكمل الخلق تحقيقاً لها مع تقدمه أبوةً على نبينا محمد المشارك له في كمال التحقيق للحنيفية.

(**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) تأكيد .

كما قال تعالى (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

وقال سُبحانَه (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) .

(**شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ**) أي : قائماً بشكر نعم الله عليه.

نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه: شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. بالقلب ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وباللسان ، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح ، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

(**اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) أي: اختارَ اللهُ إبراهيمَ لخُلَّتِه، وجَعَلَه مِن صَفوةِ خَلْقِه، وأرْشَدَه ووَفَّقَه إلى طريقِ الحَقِّ المستَقيمِ، وهو دينُ الإسلامِ، وعِبادةُ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) .

وقال سُبحانَه (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) .

– صفات إبراهيم عليه السلام:

الصفة الأولى: أمة.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ..)

قيل معناها هنا: الرجل الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس ، وهذا هو المقصود في حق إبراهيم ، وهذه تدلنا على عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق.

وقيل أن المقصود بالأمة هنا: أي الإمام ، أي قدوة يقتدى به في الخير ، وممن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير.

الصفة الثانية: قانت.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً).

والقنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع.

الصفة الثالثة: حنيفاً.

والحَنَف: الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والحنيفُ: المائل والجنف: ضده. والأحنف: مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً ، وقيل لمجرد الميل. قال ابن كثير: الحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد. وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين، قال تعالى: [ولَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكِينَ] ، وقال: [ومَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ] ، وهكذا فليكن أولياء الله.

الصفة الرابعة: شاكر.

قال تعالى (شَاكِراً لأَنْعُمِهِ) أي قائماً بشكر نعم الله عليه.

نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه: شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. بالقلب ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وباللسان ، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح ، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

الصفة الخامسة: الحلم.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ).

والحلم: ضبط النفس والطبع عن الهيجان عند الاستثارة. والحليم: الكثير الحلم وموقف إبراهيم من مقالة أبيه (لأَرْجُمَنَّكَ).

ومن العتاة قوم لوط حينما مرت به الملائكة وأخبرته بما أمرت بها قال (فلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ).

ولم يكن حلم إبراهيم ذريعة يتذرع للسكوت عن المنكر بل كان يعلن الحق وينكر الباطل (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ).

الصفة السادسة: أوّاه.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ).

والذي يتحقق من معنى الأوّاه أنه الخاشع الدعّاء المتضرع ، وكثرة تأوّه إبراهيم وتضرعه بين يدي ربه قد ذكرت في آيات كثيرة تدل على تحقيق إبراهيم (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المصِيرُ) وجدير بمن سلك طريق الدعوة أن يجعل تعجيل الإنابة من أبرز سماته ليكسب عون ربه وتسديده ومحبته.

الصفة السابعة: السخاء.

قال تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ).

فذكر أن الضيف مكرمون لإكرام إبراهيم لهم ، ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان ، مع أنهم قوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه ، ولم يعلمهم بذلك بل راح: أي ذهب خفية حتى لا يُشعر به ، تجاوباً لضيافة ، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيئاً للضيفان ، وخدمهم بنفسه، فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقربهم إليه، وتلطف مبالغة في الإكرام فقال (أَلا تَأْكُلُونَ).

الصفة الثامنة: الصبر.

كان إبراهيم مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم الذين أمر رسولنا – صلى الله عليه وسلم – أن يصبر كصبرهم (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ).

وكان صبر إبراهيم شاملاً لابتلاءات كثيرة ، سيأتي بيان جملة منها بإذن الله.

الصفة التاسعة: شجاعته.

واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) وقوله لهم (أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ...).

الصفة العاشرة: تحقيقه الكامل لعقيدة الولاء والبراء.

قال تعالى (وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ. إِلاَّ الَذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ).

فكل عدو لله وإن قربه النسب تجب البراءة منه ، وكل ولي لله وإن باعدت به الأوطان والأزمان تجب موالاته ومحبته وقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم في ذلك (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...).

الصفة الحادية عشرة: سلامة القلب.

قال تعالى (وإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

وسلامة القلب نوعان: كلاهما داخل في مضمون الآية ، أحدهما: في حق الله وهو سلامة قلبه من الشرك ، وإخلاصه العبودية لله ، وصدق التوكل عليه. والثاني: في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم ، وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك.

(**اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) أي : اختاره من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة.

– من أسباب اصطفاء إبراهيم في الدنيا وعلو منزلته في الآخرة:

سرعة امتثاله لأمر الله عز وجل.

وصبره، فلما ابتلاه ربه بالكلمات أتمهن ووفى بهن.

وشكره لنعم الله كما قال تعالى (شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

(**وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً**) قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْحَسَنَةُ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا : الذُّرِّيَّةُ الطَّيِّبَةُ ، وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ . وَيُسْتَأْنَسُ لِهَذَا بِأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَ أَنَّهُ أَعْطَاهُ بِسَبَبِ إِخْلَاصِهِ لِلَّهِ ، وَاعْتِزَالِهِ أَهْلَ الشِّرْكِ : الذُّرِّيَّةَ الطَّيِّبَةَ . وَأَشَارَ أَيْضًا لِأَنَّهُ جَعَلَ لَهُ ثَنَاءً حَسَنًا بَاقِيًا فِي الدُّنْيَا .

قَالَ تَعَالَى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) .

وَقَالَ (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) .

وَقَالَ (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) .

–قال الماوردي : قوله تعالى (وآتيناه في الدنيا حسنة) فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الحسنة النبوة ، قاله الحسن.

الثاني : لسان صدق ، قاله مجاهد.

الثالث : أن جميع أهل الأديان يتولونه ويرضونه ، قاله قتادة.

الرابع : أنها تنويه الله بذكره في الدنيا بطاعته لربه. حكاه ابن عيسى.

قال ابن عطية : قوله (وآتيناه في الدنيا حسنة) الحسنة " لسان الصدق وإمامته لجميع الخلق ، هذا قول جميع المفسرين وذلك أن كل أمة متشرعة فهي مقرة أن إيمانها إيمان إبراهيم وأنه قدوتها وأنه كان على الصواب .

(**وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**) الذين لهم أعلى الدرجات.

(**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) ذَكَرَ اللَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّنَا ﷺ الْأَمْرَ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وَبَيَّنَ هَذَا أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

كَقَوْلِهِ (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وَقَوْلِهِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ – إِلَى قَوْلِهِ – مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) .

وَقَوْلِهِ (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

والْحَنِيفِيَّةُ: دِينُ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ؛ ولكِن أُضِيفت إلى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام؛ لأَنَّه أَكْمَلُ الخلْقِ تحقِيقًا للتَّوحيدِ مع نبيّنا ﷺ؛ وإِبْرَاهِيمُ: الأَبُ، ومُحَمَّدٌ ﷺ: الِابنُ؛ فاستَحَقَّ أن تُنْسَبَ إلى الأَبِ دُون الابْنِ؛ فيقال: مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ على جهةِ التَّشْرِيفِ له؛ وإن كانَت هي ملَّةَ الأنبيَاء جَميعاً.

الفوائد :

١. الثناء على إبراهيم الخليل .

٢. من صفات إبراهيم أنه كان قانتاً لله خاشعاً .

٣. أن الأنبياء هم أعبد الناس لربهم .

٤. فضل القنوت لله .

٥. ان إبراهيم كان أمة قدوة للناس في الخير .

٦. أن الأنبياء أبعد الناس عن الشرك .

٧. تحريم الشرك

٨. وجوب الابتعاد عن الشرك .

٩. فضل الإقبال على الله تعالى .

١٠. من صفات الأنبياء شكر الله على نعمه .

١١. فضيلة خلق الشكر .

١٢. فضل الصلاح .

١٣. وجوب اتباع ملة إبراهيم .

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤))

[النحل : ١٢٤] .

==========

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ) اختلف في معنى الآية :

فقيل : روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أمرهم موسى بالجمعة وقال : تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك ، وقالوا : لا نريد إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت ، فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه ، ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضاً بالجمعة ، فقالت النصارى : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا واتخذوا الأحد.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال (إن الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد) .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى : {على الذين اختلفوا فِيهِ} أي على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت ، فاختلافهم في السبت كان اختلافهم على نبيهم في ذلك اليوم أي لأجله ، وليس معنى قوله (اختلفوا فِيهِ) أن اليهود اختلفوا فيه فمنهم من قال بالسبت ، ومنهم من لم يقل به ، لأن اليهود اتفقوا على ذلك فلا يمكن تفسير قوله : {اختلفوا فِيهِ} بهذا ، بل الصحيح ما قدمناه.

وقيل : في اختلافهم في السبت ، أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة ، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة.

وفي الآية قول آخر. قال قتادة: إن الذين اختلفوا فيه هم اليهود، حيث استحله بعضهم وحرمه بعضهم، فعلى هذا القول يكون معنى قوله (إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ ..) أي : وبال يوم السبت ولعنته عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وهم اليهود، حيث استحله بعضهم فاصطادوا فيه، فعذبوا ومسخوا.. وثبت بعضهم على تحريمه فلم يصطد فيه، فلم يعذبوا.. والقول الأول أقرب إلى الصحة .

قال القرطبي : قد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛ فقالت طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فناظروه أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : دعهم وما اختاروه لأنفسهم.

وقيل : إن الله تعالى لم يعيّنه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهادهم في تعيينه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق.

وعينت النصارى يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه الخلق.

فألزِم كلّ منهم ما أداه إليه اجتهاده.

وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يَكِلَهم إلى اجتهادهم فضلاً منه ونعمة ، فكانت خيرَ الأمم أمة.

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) أي : وإن ربك- أيها الرسول الكريم- ليحكم بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة، بأن ينزل بهم العقوبة التي يستحقونها بسبب مخالفتهم لنبيهم، وإعراضهم عن طاعته فيما أمرهم به من تعظيم يوم الجمعة.

ويصح أن يكون المعنى: وإن ربك ليحكم بحكمه العادل بين هؤلاء اليهود الذين اختلفوا في شأن يوم السبت، حيث استحله بعضهم، وحرمه البعض الآخر، فيجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

الفوائد :

١. فضل هذه الأمة .

٢. ذم الاختلاف .

٣. ذم الاختلاف على الأنبياء .

٤. تعنت أهل الكتاب .

٥. فضل الاجتماع على الأنبياء .

٦. أن تحريم الصيد في يوم السبت جعله الله عقوبة لهم بعد أن ضلوا عن يوم الجمعة بسبب اختلافهم فيه ومخالفتهم أمر الله .

٧. أن من العقوبات ما يكون في التشريع بالتشديد في التحريم .

٨. إثبات يوم القيامة .

٩. أن يوم القيامة يحكم الله بالحق والعدل .

(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)) .

[النحل : ١٢٥] .

==========

(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ) أي : ادع إلى دين ربك يا محمد .

قال الشوكاني : وحذف المفعول للتعميم ، لكونه بعث إلى الناس كافة ، وسبيل الله هو الإسلام .

فضائل الدعوة والدلالة على الخير:

أولاً: أن له مثل أجر فاعله.

وعن أَبي مسعود عُقبةَ بنِ عمرو الأنصاري ﷺ، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ (مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ) رواه مسلم.

وللحديث (مَنْ دَعَا إِلَى هُدَىً، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَه ...).

ثانياً: استجابة لأمر الله.

لقوله تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ).

ثالثاً: استجابة لأمر الرسول الله ﷺ بالتبليغ.

قال ﷺ (بلغوا عني ولو آية) رواه البخاري.

والمبلغ لكلام النبي ﷺ وهديه، دعا له النبي ﷺ بنضارة الوجه في قوله (نضر الله امرءاً سمع شيئاً فبلغه كما سمع فرُبَّ مبلغٍ أوعى من سامع) رواه الترمذي.

رابعاً: سبب للفلاح.

قال تعالى (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

خامساً: أنها أفضل الأعمال وأحسن الأقوال.

قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً).

قال السعدي: هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي: لا أحد أحسن قولا. أي: كلاما وطريقة، وحالة (ممن دعا إلى الله) بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

سادساً: الدعوة إلى الخير مهمة سيد البشر.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا).

سابعاً: الداعية ينجو من عقوبة الدنيا بالظالمين.

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ).

ثامناً: أنها سبب للفوز بخيرية الأمة.

قال تعالى (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ).

قال ابن كثير: فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها ، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله (كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون).

تاسعاً: أن فيها تهذيب للنفوس وتزكيةٌ لها.

كما قال تعالى في الحكمة من إرسال نبيه ﷺ (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ...). إذن يجب أن نعلم أن من أعظم واجبات الدعاة تزكية النفوس وتربيتها على المعاني الإيمانية والتربوية التي جاءت في الشريعة الإسلامية.

عاشراً: أنها سبب لثناء الرب عز وجل واستغفار الملائكة وسائر المخلوقات.

قال ﷺ (إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير).

قال العلماء: الصلاة من الله تعني (الثناء) ومن الملائكة وغيرهم من المخلوقات تعني (الاستغفار) ، وما أعجب هذا الحديث لمن تأمله ، أن تفوز بثناء الرب تعالى ، واستغفار الملائكة الذين لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

الحادي عشر: أنها سبب للفوز بدعوة النبي ﷺ :

حيث قال ﷺ (نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن.

(**بِالْحِكْمَةِ**) يعني ادع إلى دين ربك يا محمد ، وهو دين الإسلام بالحكمة يعني بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة .

ومن الحكمة : دعوة كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين .

(**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**) يعني وادعهم إلى الله بالترغيب والترهيب وهو أنه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم .

قال ابن عاشور : ووصفها بالحُسْن تحريض على أن تكون ليّنة مقبولة عند الناس ، أي حسنة في جنسها ، وإنما تتفاضل الأجناس بتفاضل الصفات المقصودة منها.

قال السعدي : (والموعظة الحسنة) وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل،

(**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) أي : فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

ونظير ما ذكر هنا من المجادلة بالتي هي أحسن : قوله لموسى وهارون في شأن فرعون (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى) .

ومن ذلك القول اللين : قول موسى له (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فتخشى) .

قال الآلوسي: وإنما تفاوتت طرق دعوته ﷺ لتفاوت مراتب الناس، فمنهم خواص، وهم أصحاب نفوس مشرقة، قوية الاستعداد لإدراك المعاني، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء يدعون بالحكمة.

ومنهم عوام، أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد، شديدة الإلف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان، لكن لا عناد عندهم، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة.

ومنهم من يعاند ويجادل بالباطل ليدحض به الحق، لما غلب عليه من تقليد الأسلاف، ورسخ فيه من العقائد الباطلة، فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر، بل لا بد من إلقامه الحجر بأحسن طرق الجدال، لتلين عريكته، وتزول شكيمته، وهؤلاء الذين أمر ﷺ بجدالهم بالتي هي أحسن .

قال ابن القيم : جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمتسجيب القابل الذكي الذي لا يعاندالحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الامر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية .

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**) بيان لكمال علم الله- تعالى- وإحاطته بكل شيء، وإرشاد للدعاة في شخص نبيهم صلى الله عليه وسلم إلى أن عليهم أن يدعوا الناس بالطريقة التي بينها- سبحانه- لهم، ثم يتركوا النتائج له- تعالى- يسيرها كيف يشاء.

والظاهر أن صيغة التفضيل أَعْلَمُ في هذه الآية وأمثالها، المراد بها مطلق الوصف لا المفاضلة، لأن الله- تعالى- لا يشاركه أحد في علم أحوال خلقه، من شقاوة وسعادة، وهداية وضلال.

والمعنى: إن ربك- أيها الرسول الكريم- هو وحده العليم بمن ضل من خلقه عن صراطه المستقيم، وهو وحده العليم بالمهتدين منهم إلى السبيل الحق وسيجازى كل فريق منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

وما دام الأمر كذلك، فعليك- أيها الرسول الكريم- أن تسلك في دعوتك إلى سبيل ربك، الطرق التي أرشدك إليها، من الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ومن كان فيه خير- كما يقول صاحب الكشاف- كفاه الوعظ القليل، والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل، وكأنك تضرب منه في حديد بارد .

الفوائد :

١. فضل الدعوة إلى الله .

٢. أن النبي ﷺ يؤمر كما يؤمر غيره .

٣. يجب على الداعية أن تكون دعوته لله لا لغير الله .

٤. مشروعية وفضل الحكمة في الدعوة الى الله .

٥. تنويع مراتب الدعوة حسب مراتب الخلق .

٦. على الداعية ان يتعلم العلم الشرعي حتى يصل الى درجة الحكمة .

٧. أن الحكمة كلها حسنة ، وقيدت الموعظة بالحسنة لأنه ليس كل موعظة حسنة .

٨. أن الداعية عليه دعوة الخلق وليس هدايتهم .

٩. أن الله أعلم بمن يستحق الهداية ومن لا يستحق .

(**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)**) .

[النحل : ١٢٦] .

==========

(**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**) أي : وإن عاقبتم أيها المؤمنون مَن ظَلَمكم وأردتم معاقبة من أساء إليكم ، واعتدى عليكم بقول أو فعل ، فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا ، قال المفسرون : نزلت في شأن (حمزة بن عبد المطلب) لما بقر المشركون بطنه يوم أُحد ، فقال النبي ﷺ : لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم .

(**وَلَئِن صَبَرْتُمْ**) ولم تعاقبوا من أساء واعتدى عليكم ولم تستوفوا حقكم في الدنيا .

(**لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**) أي : أفضل لهم وأولى وأحسن عاقبة .

وأيضاً الصبر خير لأهله خيرية مطلقة في دينهم ودنياهم وأخراهم .

فأمرهم في أول الآية بالعدل ثم ندبهم في آخرها إلى الفضل بالصبر .

وأفضل من ذلك العفو والصفح .

كما قال تعالى (وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله) .

وقال تعالى (والجروح قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ) .

وقول تعالى (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور) .

الفوائد :

١. جواز معاقبة من أساء .

٢. أن من اختار معاقبة من أساء معاقبته يجب أن يكون بقدر إساءته .

٣. فضل الصبر على العقاب .

٤. منزلة الصبر العظيمة .

٥. فضل العفو .

تنبيه :

يؤخذ من هذه الآية حكم مسألة الظفر وهي أنك إن ظلمك إنسان : بأن أخذ شيئاً من مالك بغير الوجه الشرعي ولم يمكن لك إثباته ، وقدرت له على مثل ما ظلمك به على وجه تأمن معه الفضيحة والعقوبة. فهل لك أن تأخذ قدر حقك أو لا؟

هذه المسألة تسمى عند العلماء (مسألة الظفر) وقد اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

القول الأول: أنه يجوز له ذلك.

وهذا مذهب الشافعي، وهو المعتمد عند المالكية.

أ- لعموم قوله تعالى (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ).

ب- وقوله تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ).

ج- وقوله تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا).

د- ولحديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ (دَخَلَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ - امْرَأَةُ أَبِي سُفْيَانَ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، لا يُعْطِينِي مِنْ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ، إلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ. فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ) متفق عليه.

فأجاز النبي ﷺ لهند الأخذ بغير إذن أبي سفيان، ولو كان الإذن شرطاً لبينه ﷺ .

قال الإمام النووي عند ذكر ما يستفاد من الحديث: ومنها: أن من له على غيره حق وهو عاجز عن استيفائه يجوز له أن يأخذ من ماله قدر حقه بغير إذنه، وهذا مذهبنا. (شرح النووي).

وقال الحافظ ابن حجر: واستدل به على أن من له عند غيره حق وهو عاجز عن استيفائه جاز له أن يأخذ من ماله قدر حقه بغير إذنه، وهو قول الشافعي وجماعة.

القول الثاني: أنه لا يجوز.

وهذا مذهب الحنابلة.

لحديث (ولا تخن من خانك).

وأجاب من قال بالجواز عن حديث (ولا تخن من خانك)

أن الحديث ضعفه جمع من أهل العلم، منهم الشافعي، وأحمد، والبيهقي، وابن حزم، وابن الجوزي.

ثم الحديث على فرض صحته، فإن هذا ليس من الخيانة.

قال الشنقيطي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِين ...).

يؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ حُكْمُ مَسْأَلَةِ الظَّفَرِ، وَهِيَ أَنَّكَ إِنْ ظَلَمَكَ إِنْسَانٌ: بِأَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ مَالِكَ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ وَلَمْ يُمْكِنْ لَكَ إِثْبَاتُهُ، وَقَدَرْتَ لَهُ عَلَى مِثْلِ مَا ظَلَمَكَ بِهِ عَلَى وَجْهٍ تَأْمَنُ مَعَهُ الْفَضِيحَةَ وَالْعُقُوبَةَ: فَهَلْ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ قَدْرَ حَقِّكَ أَوْ لَا؟. أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ، وَأَجْرَأُهُمَا عَلَى ظَوَاهِرِ النُّصُوصِ وَعَلَى الْقِيَاسِ: أَنَّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ قَدْرَ حَقِّكَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ.

لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ (فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ الْآيَةَ)

وَقَوْلِهِ (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُم).

وَمِمَّنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ: ابْنُ سِيرِينَ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَسُفْيَانُ، وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُهُمْ .

وقال ابن القيم : وَقَدْ احْتَجّ بِهِ (حديث هند) عَلَى مَسْأَلَةِ الظّفْرِ وَأَنّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِ غَرِيمِهِ إذَا ظَفِرَ بِهِ بِقَدْرِ حَقّهِ الّذِي جَحَدَهُ إيّاهُ وَلَا يَدُلّ لِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنّ سَبَبَ الْحَقّ هَاهُنَا ظَاهِرٌ وَهُوَ الزّوْجِيّةُ فَلَا يَكُونُ الْأَخْذُ خِيَانَةً فِي الظّاهِرِ فَلَا يَتَنَاوَلُهُ قَوْلُ ﷺ (أَدّ الْأَمَانَةَ إلَى مَنْ ائْتَمَنَك وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ) وَلِهَذَا نَصّ أَحْمَدُ عَلَى الْمَسْأَلَتَيْنِ مُفَرّقًا بَيْنَهُمَا فَمَنَعَ مِنْ الْأَخْذِ فِي مَسْأَلَة الظّفْرِ وَجَوّزَ لِلزّوْجَةِ الْأَخْذَ وَعَمِلَ بِكِلَا الْحَدِيثَيْنِ.

الثّاني: أَنّهُ يَشُقّ عَلَى الزّوْجَةِ أَنْ تَرْفَعَهُ إلَى الْحَاكِمِ فَيُلْزِمُهُ بِالْإِنْفَاقِ أَوْ الْفِرَاقِ، وَفِي ذَلِكَ مَضَرّةٌ عَلَيْهَا مَعَ تَمَكّنِهَا مِنْ أَخْذِ حَقّهَا.

الثّالِثُ: أَنّ حَقّهَا يَتَجَدّدُ كُلّ يَوْمٍ فَلَيْسَ هُوَ حَقّا وَاحِدًا مُسْتَقِرّا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَدِينَ عَلَيْهِ أَوْ تَرْفَعَهُ إلَى الْحَاكِمِ بِخِلَافِ حَقّ الدّيْنِ. (الزاد)

القول الثالث : أنه لا يجوز إلا إذا كان سبب الحق ظاهراً .

وهذا اختيار ابن القيم .

قال ابن القيم : ... أنه إن كان سبب الحق ظاهراً، كالنكاح، والقرابة، وحق الضيف، جاز للمستحق الأخذ بقدر حقه، كما أذن فيه النبي ﷺ لهند : أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ أَبِي سُفْيَانَ مَا يَكْفِيهَا وَيَكْفِي بَنِيهَا .

وكما أذن لمن نزل بقوم ولم يُضيِّفوه أن يُعْقِبَهم في مالهم بمثل قِراه كما في الصحيحين عن عُقْبة بن عامر قال: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إنّكَ تَبْعَثُنا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ لا يُقْرُونَا فمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَنَا: إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمِرُوا لَكُمْ بَما يَنْبَغِي لِضيَّفِ فَاقْبَلُوا، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيُفِ الَّذِى يَنْبَغِي لَهُم .

وفى المسند من حديث المقْدام أبى كريمة أنه سمع النبي ﷺ يقول (مَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُقْرُوهُ، فَإِنْ لَمْ يُقْرُوهُ فله أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاه) .

وفى المسند لأحمد أيضاً من حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (أَيُّمَا ضَيْفٍ نَزَلَ بِقَوْمٍ فأَصْبَحَ الضّيْفُ مَحْرُوماً، فَلهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَدْرِ قِرَاهُ، وَلا حَرَجَ عَلَيْه) .

وإن كان سبب الحق خفيا، بحيث يتهم بالأخذ وينسب إلى الخيانة ظاهراً، لم يكن له الأخذ وتعريض نفسه للتهمة والخيانة وإن كان في الباطن آخذا حقه. كما أنه ليس له أن يتعرض للتهمة التي تُسلط الناس على عرضه، وإن ادَّعى أنه محق غير متهم.

وهذا القول أصح الأقوال وأسدُّها، وأوفقها لقواعد الشريعة وأصولها، وبه تجتمع الأحاديث. (إغاثة اللهفان) .

وقال الشيخ ابن عثيمين : هذه المسألة يعبر عنها أهل العلم بعنوان مسألة الظفرة، وهي على القول الراجح لا تجوز؛ بمعنى أن الإنسان إذا كان له حق على شخص وهذا الإنسان لم يؤده حقه فهل يجوز أن يأخذ شيئاً من ماله إن قدر عليه بمقدار حقه؟ نقول: الصحيح أنه لا يجوز إلا إذا كان سبب الحق ظاهراً، مثل لو كان الحق نفقةً مثل الزوجة تأخذ من مال زوجها إذا لم يقم بواجب النفقة، وكالقريب يأخذ من مال قريبه إذا لم يقم بواجب النفقة، فهذا لا بأس به، وكذلك الضيف يأخذ من مال من استضافه إذا لم يقم بواجب الضيافة فهذا لا بأس به، لكن بشرط ألا يكون في ذلك فتنة وألا يكون في ذلك سببٌ للعداوة والبغضاء والشجار .

تنبيه :

أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة المماثلة في القصاص –أن الجاني يقتل بمثل ما قتل به ولا يتعين السيف –فمن قتل بحدية قتل بها ، ومن قتل بحجر قتل به.

وهذا قول مالك والشافعي وجمهور العلماء واختاره ابن تيمية رحمه الله.

لقوله تعالى (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ).

ولقوله تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ).

وعن أنس (أن جارية وجد رأسها قد رُض بين حجرين، فسألوها، من صنع بك هذا؟ فلان؟ فلان؟ حتى ذكروا يهودياً، فأومأت برأسها، فأُخذَ اليهودي فأقر، فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين) متفق عليه.

وهذا القول هو الصحيح.

وعليه: لو قتله بالرصاص فإننا نقتله بالرصاص، وإن قتله بأن رماه من شاهق، فإننا نرميه من شاهق.

لكن يستثنى ما لو قتله بوسيلة محرّمة فإننا لا نقتله بها، مثل أن يقتله باللواط أو بالسحر أو يقتله بإسقاء الخمر حتى يموت .

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)) .

النحل : ١٢٧– ١٢٨] .

==========

(**وَاصْبِرْ**) أمر من الله تعالى لنبيه بالصبر .

وقد قال تعالى لنبيه (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)

– وإنما أمره بالصبر لأمور:

أولاً: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

ثانياً: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

ثالثاً: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

رابعاً: وليكون قدوة لغيره.

(**وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**) أي : وانه لا يمتثل ذلك الأمر بالصبر إلا بإعانة الله وتوفيقه.

أي : اصبر أيها الرسول على ما أصابك من قومك، من إعراضهم عن دعوتك، وايذائِهم لك .. وما صبرك إلا بمعونته تعالى وتأييده وتوفيقه وتثبيته.

وأشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع.

كقوله (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) .

لأن قوله : (وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) الآية ، معناه أن خصلة الصبر لا يلقاها إلا من كان له عند الله الحظ الأكبر والنصيب الأوفر ، بفضل الله عليه ، وتيسير ذلك له.

(**وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**) أي : ولا تحزن على الكافرين وكفرهم بك وعدم متابعتهم لك .

وكان ﷺ يحزن لكفرهم .

كما قال تعالى (فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) وقال تعالى (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) وقال تعالى (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) باخع: أي مهلك ، وقال تعالى (فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

(**وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**) أَي : ولا تكن في حرج وضيق صدر من مكر الكفار بك، فإن الله كافيك وحافظك منهم، ومظفرك بهم، وفي هذا تأكيد لتسليته صلى الله عليه وسلم، ولأمر الله له بالصبر .

(**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ**) الكفر والمعاصي .

(**وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**) وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

وهذه المعية بعباده المؤمنين ، وهي بالإعانة والنَّصر والتوفيق. وكرر هذا المعنى في مواضع أخر :

كقوله (إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى) وقوله (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُم) وقوله (لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا) وقوله (قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) إلى غير ذلك من الآيات.

واما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم ، ونفوذ القدرة ، وكون الجميع في قبضته جل وعلا : فالكائنات في يده جل وعلا أصغر من حبّة خردل ، وهذه هي المذكورة ايضاً في آيات كثيرة :

كقوله (مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ) .

وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) وقوله (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ) وقوله (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) الآية إلى غير ذلك من الآيات.

الفوائد :

١. أمر الله لنبيه ﷺ بالصبر .

٢. فضل الصبر .

٣. عظم منزلة الصبر .

٤. طلب الإعانة والتوفيق من الله على الصبر .

٥. حرص النبي ﷺ على إيمان قومه .

٦. تسلية الله تعالى لنبيه ﷺ .

٧. دفاع الله تعالى عن نبيه ﷺ .

٨. فضل التقوى وعلو منزلتها وأن الله مع المتقين .

٩. فضل الإحسان .

١٠. على المسلم أن يجتهد في تطبيق الإحسان في عبادة الخالق ومع المخلوقين .

تم بحمد الله تعالى

اللهم إنا نسألك علماً نافعاً

الشيخ

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية / رفحاء

١٤٤٥ هـ